ترجمة الإمام

أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد
ابن الجوزي

محمد أحمد يوسف مقبول

الألوكة
www.alukah.net

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

الإمام

أبي الفرج عبد الرحمن بن علي بن الجوزي

(ت ٥٩٧هـ)

محمد أحمد يوسف مقبول

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

إنَّ الحمد للَّه؛ نحمده ونستعِينه ونستغفره، من يهده اللَّه فلا مضلَّ له، ومن يضلل فلا هادي له، وأَشهد أَن لا إِله إِلاَّ اللَّه وحده لا شريك له، وأَشهد أَنَّ محمَّدًا عبدهُ ورسوله.

أَمَّا بعد:

((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)) [آل عمران:١٠٢].

((يَاأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا)) [النساء:١].

((يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا))[الأحزاب:٧٠-٧١].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفصل الأول

عصر العلامة ابن الجوزي

وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: الحالة الاجتماعية.

المبحث الثاني: الحالة السياسية.

المبحث الثالث: الحالة العلمية.

المطلب الأول: الحالة الاجتماعية

ولد وترعرع الإمام جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى في عصر الدولة العباسية، العصر الذي يُعد أحد أبهى العصور الإسلامية، والتي ينتهي نسب الخلفاء فيها إلى العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، عمِّ النبي صلى الله عليه وسلم، وكان أول خلفاء بني العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب، المشهور بالسفاح (١٠٤- ١٣٦هـ، ٧٢٢ - ٧٥٤م) أحد الجبارين الدهاة من ملوك العرب، وكان يوصف بأنه شديد العقوبة، عظيم الانتقام، تتبع بقايا الأمويين بالقتل والصلب والإحراق؛ حتى إنه لم يُبق منهم غير الأطفال، أو من استطاعوا اللجوء إلى بلاد الأندلس، وكان أول من أحدث الوزارة في الإسلام، على أنه كان يوصف بالفصاحة والعلم؛ فبدأت الدولة الفتية على أكتاف شابٍّ جمع بين بالمتناقضات في صفاته؛ فمع علمه بحرمة الدماء، وقرب نسبٍ من بيت النبوة، إلا أن صفة القتل غلبت عليه؛ فسمي بالسفاح لكثرة ما سفح من دماء بني أمية[1].

---

(١) انظر لذلك: ترجمة أبي العباس السفاح في: البداية والنهاية (٦٠/١٠)، والعبر في خبر من غبر (١٨٤/١)، والكامل في التاريخ (٦٣/٥)، وتاريخ الطبري (٣٤٤/٤)، وتاريخ اليعقوبي (٣٤٩/٢)، وغيرها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كانت هذه البداية لدولة آثرت الاعتماد على غير العرب بعد مذابح بني أمية، وما زالت السنون تتطاول بخلفائها حتى حكموا من سنة (١٣٢هـ) إلى (٦٥٦هـ)، أي: ما يقرب من خمسة قرون وربع القرن، متدرجة الدولة في ذلك من القوة إلى الضعف شيئاً فشيئاً، لينتهي حكم بني العباس بآخر خليفة لهم وهو المستعصم عبد الله بن منصور الذي قتله التتار في بغداد عام (٦٥٦ هـ) [١].

وقد ساعد امتداد البُعد الجغرافي للدولة العباسية، وتولي السلاطين من ذوي الأعراق والمذاهب المختلفة فيها مقاليد الحكم، وتسلطهم عليها، وامتداد أيدي الأمراء والوزراء أحياناً لصناعة القرار في الدولة إلى بروز كثير من الأعراق على الساحة الاجتماعية، والتي كانت بعد ذلك لها أثرها الواضح في صياغة الحياة الاجتماعية على رقعة الخلافة الإسلامية، بل وحتى في بيوت الخلفاء أنفسهم، فقد وجد منهم من أمه أم ولد[٢]، وبرز من قادة الجيوش أعراق مختلفة، أمثال الأسرة الكردية الشهيرة[٣] التي أنجبت نور الدين زنكي[٤]، وصلاح الدين الأيوبي[٥]، والتي كانت السبب في وجود الدولة المملوكية[٦] فيما بعد.. كل هذا وغيره أوجد

---

(١) سيأتي تفصيل ذلك في المطلب الثاني، وهو الحالة السياسية لعصر ابن الجوزي.

(٢) سيأتي التعريج على ذلك أيضاً في المطلب الثاني.

(٣) انظر: سمط النجوم العوالي (٦٨/١)، (١٩/٤).

(٤)الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن الملك الأتابك قسيم الدولة عمادالدين أبي سعيد زنكي الملقب بالشهيد بن الملك آقسنقر الأتابك الملقب بقسيم الدولة التركي السلجوقي مولاهم.

[البداية والنهاية (٢٧٧/١٢)، وذيل تاريخ دمشق (٢٨٨)، وذيل تاريخ بغداد (١١/٣)].

(٥) أبو المظفر يوسف بن أيوب بن شاذي بن مروان بن يعقوب السلطان العادل المؤيد المجاهد المرابط المثاغر الملقب الملك الناصر صلاح الدين صاحب الديار المصرية والبلاد الشامية والفراتية واليمنية، لم يأت في ملوك الإسلام بعد نور الدين الشهيد مثله فتح القدس الشريف وطهر السواحل من الإفرنج.

[وفيات الأعيان (١٣٩/٧)، والوافي بالوفيات (٤٩/٢٩)، والأعلام للزركلي (٢٢٠/٨)].

(٦) تأسست الدولة المملوكية على أنقاض الدولة الأيوبية التي أسسها صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، وقد انقسمت الدولة المملوكية إلى قسمين: دولة المماليك البحرية، نسبة إلى جزيرة الروضة التي كانوا يسكنونها والمطلة على النيل، وحكمت بين سنة ٦٤٨-٧٩٣هـ، ١٢٥٠-١٣٩٠م، ودولة المماليك البُرْجية، نسبة إلى أبراج القلعة التي كانوا يقطنونها، وحكمت حتى قضى عليهم السلطان سليم الأول العثماني سنة ٩٢٣هـ ١٥١٧م، ومن أشهر ملوك دولة المماليك البحرية: عز الدين أيبك، والظاهر بيبرس، والمنصور قلاوون، ومن أشهر ملوك دولة المماليك البرجية: برقوق، وآخرهم قنصوه الغوري.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ألواناً متعددة لحياة الخلافة وتبعاً لذلك على حياة الناس، بغض النظر عن نوعية التأثير بالسلب أو بالإيجاب.

ولمعرفة حجم الثقافات المتابينة والحاضرات المختلطة المجتمعة في دولة الإسلام لا بد لنا من الاطلاع على اختلاف الأعراق في ذلك العصر، والذي يوضحه الإمام ابن الجوزي بأن عامة بغداد سكان عاصمة الخلافة – التي عمرها العباسيون وجعلوها عاصمة الإسلام – آنذاك كانوا يؤلفون خليطاً من العرب والفرس والترك والنبط[1] والأرمن[2] والجركس[3] والأكراد[4] والكرج[1] والبربر[2]، ولو أن تسمية هؤلاء جميعاً بالعرب قد غلبت عليهم

قام المماليك بدور هام في التاريخ الإسلامي؛ فقد صدوا الزحف المغولي في معركة عين جالوت، وطويت على أيديهم آخر صفحات الغزو الصليبي عام ٦٩٠هـ،١٢٩١م، الذي استمر لقرنين من الزمان.

[الموسوعة العربية العالمية – الدولة المملوكية]

(١) النبط بفتح النون والباء الموحدة وطاء مهملة، والنبيط الماء الذي يخرج من قعر البئر إذا حفرت، والنبط جيل معروف كانوا ينزلون بالبطائح بين العراقين، والنبط هم أهل بابل من العراق في الزمن القديم وإليهم تنسب الفلاحة النبطية ... قيل لأن إبراهيم الخليل عليه السلام ولد بها وكان النبط سكانها، قال الأزهري: ورجل نبطي ونباطي منسوب إلى النبط، قال ابن الكلبي: هم من بني نبيط بن ماس بن إرم بن سام بن نوح وقال ابن سعيد: هم من بني نبيط بن أشور بن سام بن نوح.

[النهاية في غريب الأثر (٨/٥)، ولسان العرب (٥٣٣/٢)، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا (٤٢٤/١)].

(٢) الأرمن بفتح الهمزة وسكون الراء المهملة وفتح الميم ونون في الآخر وهم أهل أرمينية الذين بقاياهم ببلاد سيس قيل هم من ولد قهويل بن ناحور بن تارخ وهو آزر وتارخ أبو إبراهيم عليه السلام، وأرم بالضم ثم السكون صقع بأذربيجان اجتمع فيه خلق من الأرمن وغيرهم لقتال سعيد بن العاص لما غزاها فبعث إليهم سعيدٌ جريرَ بنَ عبد الله البجلي فهزمهم وصلب زعيمهم، كانوا من النصارى ثم أسلموا، وموطنهم الأصلي أرمينا.

[معجم البلدان (١٥٨/١)، والموسوعة العربية العالمية (الأرمن)، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا (٤٢٥/١)].

(٣) بفتح الجيم وسكون الراء وفتح الكاف وسين مهملة في الآخر، قال المؤيد صاحب حماة في تاريخه: وهو على بحر نيطش من شرقيه، وهم في شظف من العيش، قال: وقد غلب عليهم دين النصرانية، وقد صار في زماننا منهم أكثر عسكر الديار المصرية من لدن الملك الظاهر برقوق؛ فإنه أكثر الإجلاب منهم.

[صبح الأعشى في صناعة الإنشا (٤٥٩/٤)].

(٤)كرد بالضم ثم السكون ودال مهملة بلفظ واحد الأكراد اسم القبيلة، والكردي بضم الكاف وسكون الراء والدال المهملة هذه النسبة إلى طائفة بالعراق ينزلون بالصحاري، وقد سكن بعضهم القرى يقال لهم الأكراد، خصوصاً في جبال حلوان.

[معجم البلدان (٤٥٠/٤)، والأنساب (٥٤/٥)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لانصهارهم في بوتقة الشعب العربي، وسيادة اللغة العربية[٣]، وغلبة التسمية أو التزيي بزي البلد الموفود إليه لا يمنع الوافد من بث عاداته التي نشأ وتربى عليها، ويربي عليها أبناءه، فضلاً عن كونه يعتز بها، وينتمي إليها، وما ينتج عن المزج بين هذه الألوان من مفاهيم ذات طابع مصبوغ بالصبغة الإسلامية.

كما أن طبقة الرقيق كانت كبيرة، ومعظمها "كان من أسرى الحروب ... وقد جلب أكثر الرقيق في من العهد السلجوقي[٤] من بلاد ما وراء النهر[٥] على أيدي النخاسين[٦] الذين اتخذوا من تجارة الرقيق صناعة لهم"[٧].

---

(١) الكرج قال في المشترك بفتح الكاف والراء المهملة وفي آخرها جيم، وهي فارسية وأهلها يسمونها كره وهي في رستاق يقال له فاتق، والكرج من شعوب الروم، وبلادهم الخزر ما بين أرمينية والقسطنطينية شمالاً في جبال ممتنعة.

[تاريخ ابن خلدون (٢/٢٧٧)، ومعجم البلدان (٤/٤٤٦)، وصبح الأعشى في صناعة الإنشا (٤/٣٧٢)].

(٢) البربر شعب أكثره قبائل تسكن الجبال في شمال إفريقية في جبال المغرب، أولها برقة، وهم أمم وقبائل لا تحصى ينسب كل موضع إلى القبيلة التي تنزله ويقال لمجموع بلادهم بلاد البربر، وقد اختلف في أصل نسبهم فأكثر البربر تزعم أن أصلهم من العرب وهو بهتان منهم وكذب، والبربري واحد البربر.

[المعجم الوسيط (ص٤٦)، ومعجم البلدان (١/٣٦٨)].

(٣) انظر: المنتظم في تاريخ الملوك والأمم، لعبد الرحمن بن علي بن محمد بن الجوزي أبو الفرج، دار صادر – بيروت، الطبعة الأولى ١٣٥٨، (٩/٢٢٨).

(٤) الدولة السلجوقية هي من أعظم الدول الإسلامية، ونسبتهم إلى سلجوق بن دقاق أحد مقدمي الأتراك، وبهم زالت دولة بني بويه عن بغداد وأعمال الخلافة، وأول من ملك منهم طغرلبك بن ميكائيل بن سلجوق في سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، وقد ملك بلاد العجم بعد آل سبكتكين، وامتدت مملكتهم إلى العراق والشام والروم، ثم كان بقايا أتباعهم بالشام وهم آل زنكي وأتباع هؤلاء وهم بيت أيوب، واستكثر هؤلاء أيضاً من الترك فغلبوهم على المملكة بالديار المصرية والشامية والحجازية وخرج على آل سلجوق في المائة الخامسة الغز فخربوا البلاد وفتكوا في العباد، وكانت نهاية ملكهم على يد تكش ابن الملك ألب أرسلان شاه بن أطر.

[فتح الباري (٦/٩٠٦)، وفيض القدير (١/١١٧)، وصبح الأعشى (٤/٤١٧)].

(٥) وهي تشمل عدة أقاليم كسمرقند وبُخارى وبلخ وكرمينيا وخوارزم وفرغانة وخوقند.

(٦) هو من يدفع العبيد إلى غيره ويشتريهم ليدفعهم إلى غيره، قال أبو العباس: النخاس أخذ من النخس وهو الدفع.

[الزاهر في معاني الكلمات الناس (١/٤٤٧)].

(٧) الحضارة الإسلامية بين أصالة الماضي وآمال المستقبل (٢/٢٦٨).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وأما أهل الذمة من اليهود والنصارى فهم دائماً أهل تجارة وصيرفة، وأصحاب معرفة بالحساب والكتابة والخراج فضلاً عن غيرها من العلوم، لذلك فقد استخدمهم العباسيون في دواوينهم، وولوهم على خزائنهم وضياعهم، كما أنهم كانوا يتمتعون بكثير من الحرية، وسياسة التسامح الديني، ويقيمون شعائرهم في أمن وطمأنينة، بما كفل لهم الإسلام من حرية تدل عليها الكثير من النصوص وأخبار الفاتحين، وإن كان لم يسمح لهم بإظهارها بين المسلمين، وقد بلغ من اندماجهم في المجتمع أن اتخذ بعض الخلفاء العباسيين أطباء ووزراء من النصارى(١).

ويضرب ابن خلكان(٢) المثل على تسامح العباسيين مع أهل الذمة فيقول:" يمكن اتخاذ إبراهيم بن هلال(٣) مثالاً لما قد يصير إليه الذمي من بلوغ أرفع المناصب في الدولة، فقد تقلد إبراهيم الأعمال الجليلة، فامتدحه الشعراء، وعرض عليه عز الدولة باختيار ابن معز الدولة البويهي(٤) أن يوليه الوزارة إن أسلم فامتنع، وكان إبراهيم بن هلال حسن العشرة مع

---

(١) انظر: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، لموفق الدين أبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي، دار مكتبة الحياة، بيروت، تحقيق الدكتور نزار رضا، ففيه ذكر شيء كثير من رصد هذه الوقائع، والكامل في التاريخ (٣٨٨/٧)، وتاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، للدكتور حسن إبراهيم حسن، دار الجيل بيروت، ٢٠٠١م، (٦٣١/٤).

(٢) شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر بن خلكان الإربلي الشافعي أحد الأئمة الفضلاء والسادة العلماء، والصدور الرؤساء، وهو أول من جدد في أيامه قضاء القضاة من سائر المذاهب؛ فاشتغلوا بالأحكام بعد ما كانوا نواباً له، وقد درس ابن خلكان في عدة مدارس لم تجتمع لغيره؛ وهو صاحب كتاب التراجم البديع المشهور "وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان".

[البداية والنهاية (٣٠١/١٣)، وفوات الوفيات (١٥٣/١)، وتاريخ الإسلام (٦٥/٥١)].

(٣) إبراهيم بن هلال بن إبراهيم بن زهرون بن حبون، أبو إسحاق الحراني كاتب الرسائل للخليفة ولمعز الدولة بن بويه، كان على دين الصابئة إلى أن مات عليه، وكان مع هذا يصوم رمضان ويقرأ القرآن من حفظه، وكان يحفظه حفظاً حسناً، ويستعمل منه في الرسائل، وكانوا يحرصون عليه أن يسلم فلم يفعل، وله شعر جيد قوي، توفي وقد جاوز السبعين، وقد رثاه الشريف الرضي، وقال: إنما رثيت فضائله، وليس له فضائل، ولا هو أهل لها ولا كرامة.

[البداية والنهاية (٣١٣/١١)، والعبر في خبر من غبر (٢٦/٣)، والوافي بالوفيات (١٠١/٦)، ووفيات الأعيان (٥٢/١)].

(٤) هو أحمد بن الحسن بن بويه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المسلمين، عفيفاً في مذهبه، وكان بينه وبين الصاحب إسماعيل بن عباد، والشريف الرضي، مراسلات ومواصلات رغم اختلاف الملل، وكان إبراهيم حافظًا للقرآن"[1].

يضاف إلى ما سبق اللون الرافضي الذي كان له حضور وتمكن على مدى عقود متتابعة أنهكت الدولة، وأتت على الأخضر واليابس منها.

ونتيجة لهذا المزيج المختلط من الأفكار والعقائد والمناهج والثقافات المنضوية تحت سقف الخلافة، وللتطور الذي ساد الحياة في النواحي الصناعية والزراعية في ذلك العهد ساد الرخاء في أوساط بغداد، وبقية المدن في العراق، وانتقل منها إلى باقي أقاليم العالم الإسلامي -إذ يعتبر العصر العباسي هو عصر الإبداع في الحضارة الإسلامية- ووجود الانفتاح على العالم، والتشجيع عليه.. نتيجة لذلك كله فقد بلغت فيه الحضارة الإسلامية أوجها من الناحية المادية، وأثمرت ثماراً يانعة، غير متأثرة بما يحدث للخلافة من الناحية السياسية من حيث القوة والضعف، وإن كان لهذا الترف أثره فيما بعد في هدم ما بُني، فهو الذي أوجد معول الهدم من الفقراء والمعوزين والذين نهبت أموالهم أو لم يعد يصلهم من بيت المال ما يسد رمقهم من جهة، وأدى من جهة أخرى إلى تغلغل الخور في الأمة بسبب المترفين، مما ترتب عليه سقوط الدولة بفعل ذلك، وتحت نَير[2] ضربات المغول القاسية.. بل عاشت القصور أحياناً على الجبايات التي كان يجمعها الجند من الناس لما اخترع البويهيون طريقة الضمان في الولايات، وزادوا من ترفهم في مقابل مزيد فقر للبسطاء، ويعلل ابن خلدون لهذا الأمر وأثره على زوال العمران في مقدمته فيقول:" واعلم أن الداعي لذلك كله إنما هو حاجة الدولة والسلطان إلى الإكثار من المال بما يعرض لهم من الترف في الأحوال، فتكثر نفقاتهم، ويعظم الخرج، ولا يفي به الدخل على القوانين المعتادة، فيستحدثون ألقاباً ووجوهاً يوسعون بها الجباية ليفي لهم الدخل بالخرج، ثم لا يزال الترف يزيد والخرج بسببه يكثر، والحاجة إلى

---

(١) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لأبي العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن خلكان، دار الثقافة، لبنان، ١٩٩٤م، تحقيق إحسان عباس (٣/٢٥٦).

(٢) النير: الخشبة المعترضة فوق عنق الثور -أو عنقي الثورين المقرونين لجر المحراث- أو غيره. [المعجم الوسيط (٢/ ٩٦٦)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أموال الناس تشتد، ونطاق الدولة بذلك يزيد إلى أن تمحي دائرتها، ويذهب برسمها، ويغلبها طالبها والله أعلم"[1].

ومن الملامح الاجتماعية أيضاً لهذا العصر ما اتسم به من الرقي بفن العمارة الإسلامية، وبث روح التنافس في ذلك؛ فقد بنيت مدن كاملة كبغداد عاصمة الخلافة في عهد أبي جعفر المنصور[2] على نهر دجلة عام (١٤٥هـ)، ثم أعيد بناؤها مرة أخرى في عهد المعتضد كما ذكر ابن الأثير في تناوله لأحداث (سنة ٣٦٩هـ):" أن عضد الدولة شرع في عمارة بغداد في ذلك العام، وكانت قد خربت بتوالي الفتن عليها، فعمَّر مساجدها وأسواقها، وألزم أصحاب الأملاك الخراب بعمارتها، وجدد ما دثر من الأنهار، وأعاد حفرها وتسويتها، وأصلح الطريق من العراق إلى مكة"[3]، وسامراء[4] التي بنيت في العصر العباسي الثاني كمدينة للجند الأتراك الذين استدعاهم الخلفاء بحثاً عن غير المترفين من أبناء المسلمين،

---

(١) مقدمة ابن خلدون، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمي، دار القلم، بيروت، الطبعة الخامسة ١٩٨٤م (٢٩٠/١).

(٢) أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب القرشي الهاشمي، ثاني خلفاء بني العباس، المعروف بالسفاح، وكان قبل أن يلي الإمامة يقال له عبد الله الطويل، بويع له بالخلافة في مكة في عاشوراء.

[تاريخ مدينة دمشق (٣١٠/٣٢)، والكامل في التاريخ (٦٣/٥)، وتاريخ الإسلام (٤٦٥/٩)].

(٣) الكامل في التاريخ، لأبي الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ، الطبعة الثانية، تحقيق عبد الله القاضي (٣٨٧/٧).

(٤) سامراء مدينة في العراق كانت عاصمة العباسيين في الفترة بين٢٢٢-٢٦٣هـ، ٨٣٦-٨٧٦م. بناها الخليفة المعتصم (٢١٨-٢٢٧هـ، ٨٣٣-٨٤١م) عام ٢٢١هـ، ٨٣٥م بعد أن ضاقت بغداد بجنوده، فانتقل إليها مع جيشه وسماها سُرّ من رأى، واتخذها عاصمة للخلافة بدلاً من بغداد، وبقيت كذلك حتى عهد الخليفة المعتمد (٢٥٦-٢٧٩هـ، ٨٦٩-٨٩٢م) الذي أعاد لبغداد مكانتها. يصل عدد سكانها إلى أكثر من مائة ألف نسمة.

تقع سامراء على الضفة اليسرى لنهر دجلة على بعد ١٠٠كم شمالي بغداد. ويقع عندها سد سامراء. وهي تتبع حاليًا قضاء تكريت. وإليها ينسب كثير من العلماء والسياسيين. ومن آثارها الباقية دار الخليفة، المنارة الملوية، قصر العاشق، قصر المعشوق، ضريحا الإمام علي الهادي وولده حسن العسكري. وقد اشتهرت بكثرة البساتين والميادين وشوارعها الفسيحة. وقد خربت على يد المغول فسميت ساء من رأى.

[الموسوعة العربية العالمية – سامراء].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بغرض تنشئتهم التنشئة العسكرية[١]، ومدينة الحلة التي بناها صدقة بن منصور بن دبيس[٢]، زعيم قبيلة بني أسد، وقد كانوا من قبل يسكنون الخيام.

يضاف إلى ذلك قصور الخلفاء والوزراء والأثرياء كقصر الخلد[٣]، وقصر الذهب[٤] الذي كان يتوسط بغداد، وما بني أيضاً من مساجد وحصون وقلاع في دولة الخلافة العباسية كنوع من التباهي والتنافس الذي ساد في العصر الثاني، والذي كان يقوم به في الأساس أمراء وسلاطين وملوك الدول التي كانت تخضع للخلافة العباسية خضوعاً روحياً أو شكلياً.

وهذا النشاط المعماري والتَّرف المالي كان عاملاً مشجعاً لجذب الشعراء ليمدحوا الخلفاء وما قاموا به من أعمال، وما شيدوا من مبانٍ تعتبر أعجوبة وآية في ذلك الزمان، وهذا مما أضاف أغراضاً أخرى من أغراض الشعر، وأعطاه لونه الخاص[٥].

كما لعبت النهضة الزراعية دورها في تحقيق هذا الازدهار الاقتصادي، فقد كانت دولة الخلافة تضم أراضي شاسعة تتسم بالخصوبة والصلاحية لإنتاج شتى المحاصيل.

وبدهي أن تكثر في مثل هذه الأجواء مجالس اللهو والطرب، والتي أخذت بالتطور بمرور عصور الازدهار، ووجود الراعي لها من الأثرياء والمترفين، ويصف ابن خلدون ذلك فيقول:" وما زالت صناعة الغناء تتدرج إلى أن كملت أيام بني العباس عند إبراهيم بن المهدي[٦] وإبراهيم الموصلي وابنه إسحاق وابنه حماد[١]، وكان من ذلك في دولتهم ببغداد ما

---

(١) التاريخ الإسلامي، محمود شاكر، المكتب الإسلامي، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م، بيروت، (٨/٥).

(٢) صدقة بن منصور بن دبيس بن علي بن مزيد الأزدي الناشري صاحب الحلة السيفية بالعراق، قتله السلطان محمد بن ملكشاه في الحرب سنة خمسمائة.

[اللباب في تهذيب الأنساب (٢٨٩/٣)، والبداية والنهاية (١٢٦/١٢)].

(٣) قصر بناه المنصور في بغداد على شاطئ دجلة، فظن أنه يخلد فيها أوأنها تخلد فلا تخرب فعند كماله مات. [البداية والنهاية (١٠٣/١٠)].

(٤) قصر لأبي جعفر المنصور على شط بغداد. [البداية والنهاية (٢٢٣/١٠)].

(٥) لا يخفى على أحد ما أُلف من كتب، وقُدم من دراسات، وما كُتب من بحوث كثيرة متخصصة تبحث في الشعر في العصر العباسي، والألوان التي وردت على الشعر العربي في ذلك العصر، وأثر الحياة المدنية في استنطاق أفواه الشعراء.

(٦) الأمير الكبير أبو إسحاق الملقب بالمبارك إبراهيم بن أمير المؤمنين محمد بن أبي جعفر الهاشمي العباسي الأسود، ويعرف بالتنين للونه وضخامته، كان فصيحاً بليغاً عالماً أديباً شاعراً رأساً في فن الموسيقى، ويعد أول نابغ نبغ من بني العباس ثم من أولاد الخلفاء، وهو أخو هارون الرشيد، كانت له اليد الطولي في الغناء والضرب بالملاهي وحسن المنادمة.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

تبعه الحديث بعده به وبمجالسه بهذا العهد، وأمعنوا في اللهو واللعب، واتخذت آلات الرقص في الملبس والقضبان والأشعار التي يترنم بها عليه، وجعل صنفاً وحده، واتخذت آلات أخرى للرقص تسمى بالكرج، وهي تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية يلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل فيكرون ويفرون ويتثاقفون، وأمثال ذلك من اللعب المعد للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو، وكثر ذلك ببغداد وأمصار العراق وانتشر منها إلى غيرها"[٢]، ثم ذكر ابن خلدون بعدها قصة زرياب بالموصل[٣] وما كان منه.

ورغم هذا فقد وجد من الخلفاء من كان "من محاسنه أنه نفى المغنيات والخواطي[٤] ببغداد، وأمر أن لا يدخل أحد الحمام إلا بمئزر، وخرب أبراج الحمام صيانة لحرم الناس، وكان ديناً خيراً قوي النفس عالي الهمة"، كما ذكر السيوطي عن المقتدي بأمر الله عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله[٥][٦].

[سير أعلام النبلاء (٥٥٧/١٠)، والفهرست (١٦٨/١)، والمنتظم (٨٩/١١)، ووفيات الأعيان (٣٩/١)].

(١) إبراهيم الموصلي المغني، كان من ندماء بعض الخلفاء، اشتهر بالغناء هو وجواري له، وولده إسحاق شاعر متأدب فاضل له روايات.

[الأنساب (٣٥٤/٥)، والأغاني (١٨٨/٥)].

(٢) مقدمة ابن خلدون (ص٤٢٧).

(٣) كان غلاماً للموصليين أخذ عنهم الغناء فأجاد فصرفوه إلى المغرب غيرة منه فلحق بالحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل أمير الأندلس فبالغ في تكرمته وركب للقائه وأسنى له الجوائز والإقطاعات والجرايات وأحله من دولته وندمائه بمكان فأورث بالأندلس من صناعة الغناء ما تناقلوه إلى أزمان الطوائف وطما منها بأشبيلية بحر زاخر وتناقل منها بعد ذهاب غضارتها إلى بلاد العدوة بأفريقية والمغرب [نفح الطيب (١٢٢/٣)، ومقدمة ابن خلدون (ص٤٢٨)].

(٤) جمع خاطية؛ وهن نساء إفرنجيات اشتهرن بالفجور في بغداد.

(٥) تاريخ الخلفاء عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى، ١٩٥٢م، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (ص ٤٢٣).

(٦) أبو القاسم عبد الله بن محمد بن القائم بأمر الله، مات أبوه في حياة القائم. و هو حمل. فولد بعد وفاة أبيه بستة أشهر وأمه أم ولد اسمها أرجوان، وبويع له بالخلافة عند موت جده وله تسع عشرة سنة، وثلاثة أشهر، وكانت البيعة بحضرة الشيخ أبي إسحاق الشيرازي وابن الصباغ والدامغاني وظهر في أيامه خيرات كثيرة وآثار حسنة في البلدان، وكانت قواعد الخلافة في أيامه باهرة وافرة الحرمة بخلاف من تقدمه. [تاريخ الخلفاء (ص ٣٦٥)].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وليس بخاف أيضاً ما قامت به الدولة العباسية من دور كبير في إنعاش الحياة المدنية في قلب المجتمع الإسلامي، وما أحدثته من قفزات في الحياة المؤسسية للدولة الإسلامية، وسنِّ القوانين الإدارية المناسبة لذلك، وكان مما أحدثته على سبيل المثال من المؤسسات:

مؤسسة الحسبة، والتي عرفت في عهدهم كأول مؤسسة لها نظامها الخاص بها، فمنذ العصر العباسي الأول بدأت وظيفة المحتسب تأخذ شكلاً مغايراً، و"كان [ذلك] في عهد الخليفة المهدي الذي استقرت فيه الدولة العباسية.. العهد الذي ظهرت فيه مؤسسة الحسبة بسلطاتها الواسعة، وامتدت إلى مدن المشرق، ومدن المغرب العربي فالأندلس، وأصبح دورها بارزاً وحيوياً في ضبط وتوجيه وترشيد السلوك الإنساني التعاملي في الحياة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية"(١).

---

(١) مكانة مؤسسات الحسبة في الاقتصاد الإسلامي ودورها في القضاء على الفساد الاقتصادي، الأستاذ الدكتور صالح صالحي (ص٩).

ولقد انتعشت مؤسسة الحسبة في ظل الدولة السعودية منذ نشأتها، ولعل المقام هنا يسمح بعقد مقارنة بالحسبة في المملكة العربية السعودية قديماً وحديثاً، ولا بد أولاً من التعريج على شيء من تاريخ تطور مؤسسة الحسبة وأهم وظائف المحتسب –في الدولة الإسلامية عموماً– قبل عقد هذه المقارنة.

ويبدأ تاريخ الحسبة عندما فتح الملك عبد العزيز رحمه الله مدينة الرياض (سنة ١٣١٩هـ)، كان العلماء والصلحاء يقومون بواجبهم في الاحتساب على مستوى فردي، وكان من أبرزهم: الشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف آل الشيخ، وبعد أن استقرت البلاد واتسع الحكم نسبياً كلف الملك عبد العزيز الشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف– رحمهم الله جميعاً– بالقيام على ولاية الحسبة، وأن يباشر أعمال الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في نطاق أوسع، وزوده بأعضاء يساعدونه على هذا العمل، كفضيلة الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ، والشيخ عبد الرحمن بن إسحاق آل الشيخ، والشيخ عبد اللطيف بن إبراهيم آل الشيخ، وكلما توسعت البلاد واطرد نموها أمد الملك عبد العزيز المحتسبين بالأعوان، وعقب وفاة الشيخ عبد العزيز بن عبد اللطيف كلف الملك عبد العزيز الشيخ عمر بن حسن آل الشيخ بأعمال الاحتساب (عام ١٣٤٥هـ)، وصار رئيساً لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بمنطقة نجد بما فيها القصيم وحائل وسائر بلدان العارض، ثم ضم إليه المنطقة الشرقية والحدود الشمالية ووادي الدواسر، وكان المقر الرئيس للهيئة في مدينة الرياض، ولها فروع في المدن الكبرى، ولما انضمت عسير والأحساء وحائل إلى الدولة السعودية أنشئ لكل منها فرع للهيئة، وكان الملك عبد العزيز لا يكاد يسمع عن قرية ليس فيها من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر إلا وجه إلى القائم فيها كتاباً يأمره بتعيين رجال من أهل الصلاح والتقوى للاحتساب فيها، وبعد أن ضم الملك عبد العزيز الحجاز (عام ١٣٤٤هـ) إلى المملكة بدأ التفكير في أمر الاحتساب، وتعيين رجال يتولونه، وفي صفر من (عام ١٣٤٦هـ) أنشئت الهيئة في مكة، وقد كانت تخضع لها البلدان المجاورة كجدة والطائف وغيرها، وفي (عام ١٣٧٢هـ) صدر نظام يقضي بربط الهيئات في الحجاز بالنيابة العامة ثم بمجلس الوزراء، وتم تعيين الشيخ عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

رئيساً لها، وفي عهد الملك سعود (عام ١٣٧٣هـ) صدرت الأوامر بالتوسع في إنشاء الهيئات وإيجاد الوظائف والاعتمادات اللازمة لها في كل من منطقة عسير وجازان والباحة وتبوك ونجران والقنفذة وأملج، وقد كانت كل هذه المناطق تابعة لرئاسة الهيئات في الحجاز، وفي عهد الملك خالد رئي أن من الأصلح ضم كل من الهيئة في الحجاز، والهيئة في نجد في هيئة واحدة تحت مسمى الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتم تعيين معالي الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن حسن آل الشيخ رئيساً لها بمرتبة وزير.

وبهذا أصبحت الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جهازًا حكومياً مستقلًا، يرتبط مباشرة برئيس مجلس الوزراء، وينشأ عنه في كل منطقة هيئة فرعية للقيام بأعمال الاحتساب.

[بتصرف عن كتاب "الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .. تاريخها .. أعمالها " من إعداد الرئاسة (ص ١٠٨- ١٣٨)].

وأما في العصر الحديث فقد تطورت الحسبة في المملكة العربية السعودية، وتعددت مجالاتها حسب تعدد مجالات الحياة التي تحتاج إلى حماية مصالح الناس المتعلقة بها؛ إذ أن كل مجال من مجالات الحياة يتطلب حمايته من المفاسد والمنكرات، وببيان صلاحيات الهيئة يتضح أن لرئيسها الطلب من الإمارة إحالة القضية التي يرى إحالتها إلى المحكمة -باعتبارها إحدى الأجهزة الحكومية المستقلة- كما أن له تشكيل لجان للتحقيق في القضايا الأخلاقية، وتحديد نوع العقوبة في حدود، وأما أعضاء الهيئة فلهم التحقيق في كافة المخالفات الشرعية الداخلية في اختصاصها باشتراك مندوب من الإمارة في الأمور المهمة، بالتنسيق بين كل من وزير الداخلية والرئيس العام لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مع إيقاع العقوبات المنصوص عليها في النظام بما يحول دون ارتكاب المحرمات والممنوعات شرعاً، أو اتباع التقاليد السيئة، أو البدع المنكرة، كما أن لهم ضبط مرتكبي المحرمات أو المتهمين [أصول الحسبة في الإسلام، دراسة تأصيلية مقارنة، للدكتور محمد كمال الدين إمام، صلاحيات الهيئة (ص١٤٦،١٤٥)].

هذا ويمكن إيجاز أهم اختصاصات المحتسب في المؤسسات الرسمية في الجانب الاحتسابي، سواء ما يتعلق منها بحق الله، أم بحق الآدميين، أم بالحقوق المشتركة بينهما، كما أن هذه الأمور موجود في الواقع المعاصر بصورة أو بأخرى سنأتي عليها، وفيما يلي ذكر لهذه الاختصاصات:

١) الإشراف على عمارة المساجد، والاعتناء بكافة شؤونها.

٢) منع تصدي الجهلاء للفتوى في شؤون الدين.

٣) منع شرب الخمر، أو إقامة الملاهي المحرمة، أو مخالطة النساء أو كل ما يؤدي إلى الريبة [الأحكام السلطانية للماوردي (ص٣١٠ -٣١٥). الأحكام السلطانية لأبي يعلى (ص٢٩٣ -٢٩٥)].

٤) الأمر برد الحقوق إذا مطلت، والديون إذا أخرت. على أن يطلب ذلك منه أصحابها، وأن لا يكون فيها إنكار وتجاحد.

٥) الإشراف على المعلمين والأطباء وكافة أرباب المهن والصناعات لتأدية عملهم بأمانة وإتقان وإخلاص. [الأحكام السلطانية للماوردي (ص٣١٨). الأحكام السلطانية لأبي يعلى (ص٣٠٢، ٣٠٣). مقدمة ابن خلدون (ص٢٥). نهاية الرتبة للشيزري (ص٩٧) وما بعدها.]

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد تطورت وظيفة المحتسب في ظلِّ الخلافة العباسية من مراقبة المكاييل والموازين، ومنع الاحتكار، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، إلى الإشراف على نظافة الأسواق والمساجد، ومراقبة الموظفين للتقيد بالأعمال، حتى مراقبة المؤذِّن للتَّقَيُّد بأوقات الصلاة، وامتدَّت سلطة المحتسب كذلك إلى مراقبة القضاة إذا تأخَّروا عن أعمالهم، أو انقطعوا عن الجلوس عن الحكم، والغريب أن المحتسب كان له الحق في امتحان واختيار ذوي المهن والحرف؛ لمعرفة مدى إتقانهم للمهنة والحرفة؛ حتى لا يستغلُّوا الآخرين؛ فقد طلب الخليفة العباسي المعتضد[1] (ت ٢٧٩هـ) من سنان بن ثابت[2] رئيس الأطباء امتحان جميع الأطباء ببغداد،

---

٦) الإشراف الشامل على كل ما يخل بالصحة العامة في الشوارع كربط الدواب على الطريق ورمي أزبال الدور والمطاعم، وإرسال الماء من الميازيب أو تجمع الأوحال [صبح الأعشى للقلشندى (٢١٤/١١)، نهاية الرتبة للشيزري (ص١٠)، نهاية الرتبة لابن بسام (ص١٦)، خطة الحسبة للفاسي (ص٣١)] .

٧) الإشراف على الأسواق وتطهيرها من المخالفات.

وفيما يلي أمثلة للحسبة المعاصرة في المملكة، مع ذكر الجهة المحتسبة:

– التحقيق في الجرائم والإدعاء بالحق العام فيها – هيئة التحقيق والإدعاء العام.

– ضبط مخالفات المطبوعات لأحكام الشريعة الإسلامية وحجزها وسحبها – وزارة الثقافة والإعلام.

– تلقي شكاوى المستهلك حول الاحتيال والغش والتدليس والتلاعب في السلع أو الخدمات والمغالاة في أسعارهما والتضليل عن طريق الإعلانات في الصحف وغيرها ورفعها إلى الجهات المختصة ومتابعتها – جمعية حماية المستهلك.

– ضبط المخالفات المتعلقة بإنتاج المخدرات والمؤثرات العقلية – وزارة الزراعة.

– ضبط المخالفات المتعلقة ببيع المنتجات المغشوشة أو عرضها – وزارة التجارة والصناعة.

– منع الاختلاط والتبرج المحرمين شرعاً – الرئاسة العامة لهيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

– ضبط المخالفات المتعلقة بحقن نطف أو أجنة في امرأة من غير زوجها – وزارة الصحة.

(١) أحمد بن محمد بن المكتفي بالله واسمه علي بن أحمد المعتضد بالله بن أبي أحمد الموفق بن جعفر المتوكل بن محمد المعتصم بن هارون الرشيد بن محمد المهدي بن عبد الله المنصور بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب يكنى أبا الحسن وأبا العباس، بويع له بالخلافة صبيحة موت المعتمد.

[تاريخ بغداد (٧٠/٥)، والبداية والنهاية (٦٦/١١)].

(٢) أبو سعيد سنان بن ثابت بن قرة، كان أديباً فاضلاً مؤرخاً عارفاً بعلم الهيئة، ماهراً بصناعة الطب، كان في خدمة المقتدر ثم القاهر والراضي.

[الفهرست (٤٢١/١)، ومعجم الأدباء (٤٠٢/٣)، وعيون الأنباء في طبقات الأطباء (٣٠٠/١)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وكانوا حوالي ٨٦٠ طبيباً، وأمر المحتسب بعدم السماح لطبيب أن يُمارس مهنته إلا بعد اجتياز الامتحان [١]!

وكان منصب المحتسب في غاية الأهمية خاصة في أوقات الأزمات والغلاء، ففي عام (٣٠٧هـ) غلت الأسعار في بغداد حتى "ضجت العامة ... وكسروا المنابر، وقطعوا الصلاة، وأحرقوا الجسور"[٢]، فكانت وظيفة المحتسب حينئذ -وهو إبراهيم بن بطحا- أن يُسَعِّر[٣] بعض السلع الضرورية، فسَعَّر كُرَّ [٤] الدقيق بخمسين دينارًا، وهو ما هدَّأ من الثورة واضطراب العامة[٥].

ولذلك بحثَ الخلفاء والأمراء والسلاطين عن المحتسبين أصحاب المهارة والعلم والحزم، وقد حكى ابن الأخوة[٦] أن "أتابك طغتكين[٧] سلطان دمشق طلب له محتسبًا، فذُكِرَ له رجلٌ من أهل العلم، فأمر بإحضاره، فلمَّا بصُر به قال: إنِّي ولَّيتك أمر الحسبة على النَّاس؛ بالأمر بالمعروف، والنَّهي عن المنكر. قال: إن كان الأمر كذلك فقُم عن هذه الطَّرَّاحة، وارفع

---

(١) عيون الأنباء في طبقات الأطباء (ص١١٢).

(٢) تكملة تاريخ الطبري، لأبي الفضل محمد بن عبد الملك بن إبراهيم الهمذاني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٥٨م، الطبعة الأولى، تحقيق ألبرت يوسف كنعان (ص٢١).

(٣) السين والعين واراء أصل واحد يدل على اشتعال الشيء واتقاده وارتفاعه ... فأما سعر الطعام فهو من هذا أيضا لأنه يرتفع ويعلو، والسِّعْر من الأسعار وهو الذي يقوم عليه الثمن، وفي الحديث أنه قيل للنبي صلى الله عليه وسلم: سَعِّر لنا. فقال: "إن الله هو المسعّر".

[معجم مقاييس اللغة (٥٧/٣)، وتهذيب اللغة (٥٤/٢)].

(٤) الكُرُّ: مكيال لأهل العراق، قدره ستون قفيزاً، أو أربعون أردباً، أو سبعمائة وعشرون صاعًا.

لسان العرب، لمحمد بن مكرم بن منظور الأفريقي المصري، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، مادة كرر (١٣٥/٥).

والصاع عند الحنفية: ٣٢٦١,٥ جرام، وعند غيرهم: ٢١٧٢جراماً.

(٥) تكملة تاريخ الطبري (٢١).

(٦) مؤيد الدين أبو مسلم هشام بن عبد الرحيم بن أحمد بن محمد بن الأخوة البغدادي ثم الأصبهاني المعدل، شيخ فاضل يعرف الأدب وله شعر رقيق صحيح القراءة والنقل قرأ كثيراً بنفسه ونسخ بخطّه ما لا يدخل تحت الحد.

[شذرات الذهب (٢٣/٥)، وتاريخ الإسلام (٣١١/٣٧)].

(٧) صاحب دمشق، وهو مملوك الملك تتش بن ألب أرسلان وكان عاقلاً خيراً شجاعاً شهماً عادلاً كثير الغزوات والجهاد للفرنج، حسن السيرة في رعيته، مؤثراً للعدل فيهم، وكان لقبه ظهير الدين، حزن عليه أهل دمشق، ولم يبق فيها محلة ولا سوق إلا والمأتم قائم عليه فيه، أقام حاكماً على الشام خمسة وثلاثين سنة. [الكامل في التاريخ (٢٤٨/٩)، وتاريخ الإسلام (٧٥/٣٦)].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

هذا المسند؛ فإنَّهما حريرٌ، واخلع هذا الخاتم، فإنَّه ذهبٌ. فقد قال النبي في الذهب والحرير: (إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، حِلٌّ لإِنَاثِهَا)[1]. قال: فنهض السُّلطان عن طَرَّاحته، وأمر برفع مسنده، وخلع الخاتم من أصبعه، وقال: قد ضممتُ إليك النظر في أمور الشُّرطة. فما رأى النَّاس محتسبًا أهيب منه" [2].

ورغم هذا التطور المؤسسي إلا أنه يؤخذ على بعض فتراته أنها أصيبت بداء خطير عرف بضمان الولاية، فقد وجد من يضمن مدينة أو إمارة للخلافة ويؤدي خراجها إليها، محاولاً في ذلك استقطاع أكبر قدر ممكن من العوائد الربحية له وتأدية أقل ما يمكن تأديته للدولة، فقد "ضمن واسطاً أبو علي بن فضلان بمائتي ألف دينار، وضمن البصرة الأغر أبو سعد سابور بن المظفر "[3]، وكان أبو العباس بن عبد الله بن أبي الشوارب أول من ضمن القضاء بمائتي ألف درهم[4]، ولا يخفى ما سيصل إليه الفساد في الدين والدنيا من الإقدام على إدخال منصب كالقضاء والشرطة وممن يمثلون طبقة العدول في المجتمع ويفضون الخصومات بين الناس في مثل هذا الأمر.

ومما يضفي طابعاً اجتماعياً على ألوان الحياة ما كان للعباسيين من اهتمام بالحفاظ على عمود نسبهم ألا يختلط، وتميزهم عن غيرهم من الرعية، يقول الدكتور يحيى محمود بن جنيد محقق كتاب (رفع البأس عن بني العباس لجلال الدين السيوطي) في مقدمته وهو يصف تلك الحال للعباسيين:" ويفيدنا كتاب رفع البأس في الخروج بجملة من النتائج ... من أهمها:

– أنهم كانوا مهتمين بأنسابهم، فكانت لهم نقابات في مدن مختلفة، وكان لهم نقباء، ونقيب مقره في مدينة بغداد.

---

(١) سنن أبي داود: باب في لبس الحرير لعذر (٤/٥٠)، رقم (٤٠٥٧)، وسنن النسائي، لأبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، ١٩٨٦م، الطبعة الثانية، تحقيق عبد الفتاح أبو غدة: تحريم الذهب على الرجال (٨/١٦٠)، رقم (٥١٤٤)، وسنن ابن ماجه، لأبي عبد الله محمد بن زيد القزويني، دار الفكر، بيروت، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي: باب لبس الحرير والذهب للنساء (٢/١١٨٩)، رقم (٣٥٩٥).

(٢) نهاية الرتبة الظريفة في طلب الحسبة الشريفة (ص٧٨).

(٣) الكامل في التاريخ (٨/٣٥١)، وتاريخ ابن خلدون (٣/٥٧٦).

(٤) المصدر السابق (٨/٥٣٦).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

– أن المناطق التي انتشروا فيها هي العراق، والشام، ومصر، وخراسان، وما وراء النهر، والحجاز.

– أنهم كانوا يحملون لقب (شريف).

– اشتهر مجموعة من الفقهاء الحنابلة من آل معبد بن العباس بن عبد المطلب.

– أن مجموعة من الأسر العباسية اشتهرت بألقاب مثل ابن الغريق(١)، وابن الخطيف(٢)، وابن الخص(٣)، وابن طومان(٤)، وابن الزوال(٥)، وابن الشنكاثي(٦)، والدوشابي(٧)"(١).

---

(١) هو هبة الله بن محمد بن علي بن محمد بن عبيد الله بن عبد الصمد بن المهتدي أبو الحسن بن القاضي أبي الحسين المعروف بابن الغريق البغدادي، كان والده يعرف براهب بني العباس لزهده وحسن طريقته، وقد حدث بالكثير، وكان خطيباً قاضياً من الأعيان، وروى عنه الحافظ أبو بكر الخطيب، وأما ولده هذا أبو الحسن فولي لما بيد أبيه من القضاء بمدينة المنصور والخطابة بجامع القصر وكان فصيحاً مليح الإيراد.

[الوافي بالوفيات (١٨٨/٢٧)، وشذرات الذهب (٣٢٤/٣)].

(٢) أبو الفضل بن المهتدي بالله الهاشمي الصّوفيّ، ولد سنة سبعٍ وخمسين، وسمع من يحيى بن ثابت وأحمد بن المقرّب وأبي بكر بن النقور وغيرهم وحدّث، ويعرف بابن الخطيف، وهو لقب لجدّهم توفّي في حادي عشر رجب، روى عنه ابن النّجّار وقال كان شيخاً صالحاً منقطعاً برباط بهروز.

[تاريخ الإسلام (٣٧٧/٤٥)].

(٣) أحمد بن أبي العز محمد بن المختار بن محمد بن عبد الواحد بن المؤيد بالله، أبو تمام العباسي، يعرف بابن الخُصّ، أخو أبي الفضل المختار، ولد سنة بضع وأربعين وأربعمائة.

[شذرات الذهب (١٣٥/٤)، وتاريخ الإسلام (١٣٥/٣٧)].

(٤) محمد بن أحمد بن عبد الصمد بن صالح بن علي بن المهتدي بالله، أبو عبدالله يعرف بابن طومان، ولي نقابة العباسيين والطالبيين جميعاً أيام المقتدر.

[الوافي بالوفيات (٧٦/٢)].

(٥) أبو العباس بن الزوال الهاشمي العباسي المأموني المعدل.

[تاريخ الإسلام (٢٣٥/٤١)].

(٦) محمد بن أبي البركات المبارك بن عبد الجليل بن أبي تمام، أبو الفضل الهاشمي الحريمي، الخطيب، المعروف بابن الشنكاثي.

[تاريخ الإسلام ٢٨٠/٤٥].

(٧)أبو هاشم الدوشابي عيسى بن أحمد الهاشمي العباسي البغدادي الهراس.

[العبر في تاريخ من غبر (٢٢٥/٤)، وشذرات الذهب (٢٥٢/٤)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وسيأتي تتمة للجانب المشرق الآخر من الحالة الاجتماعية في العصر العباسي، كبناء المساجد ودور العلم وانتشار العلماء وإكرامهم لهم في مطلب الحالطة العلمية لتعلقها به أكثر.

(١) انظر مقدمة كتاب رفع البأس عن بني العباس، لجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تحقيق يحيى محمود بن جنيد، أمين عام مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، مجلة عالم المخطوطات والنوادر – المجلد الثامن العدد الثاني رجب–ذو الحجة ١٤٢٤ هـ / سبتمبر٢٠٠٣ م – فبراير ٢٠٠٤م.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المطلب الثاني: الحالة السياسية

عاش الإمام أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله تعالى في فترة تعتبر فترة ظهور الشخصيات القوية المسيطرة على الخلفاء، ووجود دول في قلب الخلافة تحكم من وراء ستار، فقد انفردت أسر بعينها بتسيير أمور الخلافة، واستقلت أسر أخرى لتحكم كل منها إمارة من الإمارات الإسلامية، مما أدى بطبيعة الحال إلى أن يكون لبعضهم ثورات على بعض، ومحاولات لانتزاع الملك من يد الضعيف منهم، والذي كان بدوره يسعى إلى ممالأة الصليبيين ليستقوي بهم على الإمارات الإسلامية الأخرى التي تحاول الإطاحة به. بهذا يرتسم في الذهن إلى أي مدى من الفوضى السياسية كان يعيش المسلمون خاصة في بلاد الشام والعراق ومصر؛ باعتبار قربهم من دار الخلافة، ودوران رحى الحروب الصليبية بساحتهم، وإذا أردنا -فرضاً- رسم صورة لحالة العالم الإسلامي؛ فلن نجد إلا صورة من فسيفساء الدول الصغيرة المتناحرة، التي وصف حالها ابن كثير[1] بقوله:" ووهى أمر الخلافة جداً، واستقل نواب الأطراف بالتصرف فيها، ولم يبق للخليفة حكم في غير بغداد ومعاملاتها "[2].

كما أن "الثورات لم تهدأ ضد العباسيين، فقد استمرت ثورات الخوارج، والعلويين. أما الخوارج؛ فقد كانت ثوراتهم سهلة على بني العباس، والقضاء عليها دائماً هو الحاصل؛ لأنهم كانوا يثورون في جماعات، ليس لهم تأييد من الرأي العام، وليس لهم مدد من الأنصار أو المتعاطفين مع فكرتهم، وكانت تنافسهم الشيعة، فنداءات الشيعة مؤثرة؛ لأنها تضرب في صميم الشعور الإسلامي تجاه رسول هذة الأمة، ولأن لهم حيزهم الجغرافي الذي يحمل بين دفات ثراه جثمان من يحملون له الولاء، ويكرسون له الدعوة ليل نهار؛ إنه مرقد الإمام علي

---

١ - إسماعيل بن عمر بن كثير بن ضو بن درع القرشي البصروي ثم الدمشقي، أبو الفداء، عماد الدين، حافظ مؤرخ فقيه، أخذ العلوم من الحسين العراقي والحجار والقاسم بن عساكر، ولازم الحافظ المزي وتزوج بنته، وسمع من الشيخ تقي الدين بن تيمية، ولد سنة (٧٠١هـ)، وانتقل مع أخ له إلى دمشق سنة (٧٠٦ هـ)، ورحل في طلب العلم، وتوفي بدمشق سنة (٧٧٤هـ).

[طبقات المفسرين للداودي (ص٢٦٠)، والدرر الكامنة لابن حجر (٤٤٥/١)، والأعلام للزركلي (٣٢٠/١)].

٢ - البداية والنهاية، لإسماعيل بن عمر بن كثير القرشي أبو الفداء، مكتبة المعارف، بيروت (١٨٤/١١).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بن الحسين رضي الله عنه؛ فالشيعة والقومية والحكم العسكري والترف مصيبة الدولة العباسية بالأمس، ومصيبتنا اليوم"[1].

وفي ظل هذه الأوضاع وغيرها امتد حكم الخلفاء العباسيين من سنة (١٣٢هـ) إلى (٦٥٦هـ)، وهي السنة التي سقطت فيها بغداد في أيدي المغول[2]، أي ما يقرب من خمسة قرون وربع القرن.

وقد قسم المؤرخون هذه المدة الطويلة باعتبار طابعها العام إلى ثلاثة عصور، هي:

العصر العباسي الأول: من (١٣٢هـ) إلى (٢٣٢هـ)، وهو عصر سيطرة الخلفاء على مقاليد الحكم.

العصر العباسي الثاني: من (٢٣٢هـ) إلى (٣٣٤هـ)، وهو عصر النفوذ التركي.

العصر العباسي الثالث: من (٣٣٤هـ) إلى (٦٥٦هـ)، وهو عصر النفوذ السلجوقي[3].

كما قسم المؤرخون العصر العباسي باعتبار آخر إلى خمسة مراحل تاريخية بحسب الخلفاء، والمناخ السياسي الجزئي الذي ساد أجواء الخلافة:

---

١ - التاريخ الإسلامي (٥/٤٠)، وكدليل على حالة الترف المفرط نتطرق إلى ما ذكره الفقيه المالكي القاضي عبد الوهاب التغلبي وهو يغادر بغداد متأسفاً عليها فقال:" لو وجدت بين ظهرانيكم رغيفين كل غداة وعشية ما عدلت ببلدكم بلوغ أمنية، وفي ذلك يقول:

سلام على بغداد في كل موطن وحق لها مني سلام مضاعف

فوالله ما فارقتها عن قلى لها وإني بشطي جانبيها لعارف

ولكنها ضاقت علي بأسرها ولم تكن الأرزاق فيها تساعف

وكانت كخل كنت أهوى دنوه وأخلاقه تنأى به وتخالف".

وفيات الأعيان (٣/٢٢٠).

١- ينحدر المغول من قبائل بدوية عاشت في منغوليا، ومنشوريا وسيبريا، وعرفوا بتربيتهم للخيل والجمال والثيران والغنم، وبأنهم جند متميزون يحسنون ركوب الخيل واستعمال القسي والسهام، وقد عرفوا فيما بعد بالتتار، كما اشتهروا بأنهم من أكثر الفاتحين وحشية في التاريخ، بنوا أكبر إمبراطورية في التاريخ في القرن الثالث عشر الميلادي، وامتدت هذه الإمبراطورية من جنوب شرقي آسيا حتى شرقي أوروبا، دخل المغول بغداد في ٥ صفر ٦٥٦ هـ، ١٢٥٨م بعد مقاومة عنيفة، وفتكوا بأهلها سبعة أيام أو تزيد، وتم تخريب المدينة وحرقها وقتل سكانها؛ وبذلك انتهى الحكم العباسي.

[الموسوعة العربية العالمية – الإمبراطورية المغولية، والإمبرالية، والصين، والعراق].

١- دراسات إسلامية في تاريخ العرب، عبد العزيز سالم، (٣/٦،٩،١١).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المرحلة الأولى: مرحلة القوة المركزية، وتمتد من حكم أبي العباس السفاح، وحتى نهاية حكم المتوكل (١٣٢-٢٤٧هـ).

المرحلة الثانية: دور الجندية، ويتمثل في تحول السلطة الحقيقية إلى يد الوزراء والقواد، ولم يكن للخليفة أي دور فاعلٍ على الساحة، ويمثل هذا الدور الأتراك الذين سيطروا على الحكم، أمثال: بغا الكبير[١]، وبغا الشرابي[٢] ووصيف[٣]؛ حتى أن أمر تولية الخليفة قد أصبح بيد هؤلاء الوزراء والحجاب، حتى لقد قال أحد الشعراء يصف ذلك:

خليفةٌ في قفص بين وصيف وبُغا

يقول ما قالا له كما يقول الببغا

المرحلة الثالثة: دور بني بويه، فقد سيطر البويهيون[٤] على بلاد فارس والريّ وأصبهان، والجبل، وكانوا قد سيطروا على بغداد في خلافة المستكفي عام (٣٣٤هـ)، وسيطروا على

١- بغا الكبير أبو موسى التركي مقدم قواد المتوكل عن سن عالية وكان بطلا شجاعا مقداما له عدة فتوح ووقائع باشر الكثير من الحروب فما جرح قط وخلف أموالا.

[البداية والنهاية (٢/١١)، وشذرات الذهب (١١٧/٢)، وتاريخ الإسلام (٢٤/١٨)].

١- خرج على المعتز بعد سنة فقتل وجيء إليه برأسه، وكان قد ألبسه تاج الملك، فأمر الخليفة المعتز بقتله، ونصب رأسه بسامرا ثم ببغداد، وحرقت جثته، وأخذت أمواله وحواصله.

[البداية والنهاية (١٤/١١)، والمنتظم (٧٣/١٢)، والكامل في التاريخ (١٩٤/٦)].

١- وصيف التركي أحد قواد المتوكل وصيف التركي، عمل لدى الخلفاء كسابقه، وقد مات فجعل الخليفة ما كان إليه إلى بغا الشرابي.

[البداية والنهاية (١٤/١١)، الوافي بالوفيات (١٥٩/١٦)، والكامل في التاريخ (٢٤٨/٣)].

١- الدولة البويهية قامت في الجزء الغربي من إيران وفي العراق، وأسستها أُسرة بني بويه. وأشهر رجال أسرة بني بويه الحاكمة ثلاثة هم: علي والحسن وأحمد أبناء بويه. ولا يتفق المؤرخون على نسبهم، فبعضهم ينسبهم إلى بهرام جور، أحد ملوك ساسان، ويرفع آخرون نسبهم إلى آلهة المجوس، ويحط بعضهم نسبهم إلى دهماء الناس، بل إن منهم من ينسبهم إلى العرب، من بني ضبَّة. ولكن الراجح أنهم كانوا من أسرة ديلمية فقيرة، كان والدهم بويه يتعيش من صيد الأسماك.

جاءت هذه الأسرة من بلاد الديلم، وكان علو شأنها على يد الأخ الأكبر علي بن بويه. فقد كان جنديًا، استطاع بشجاعته أن يكون قائد جماعة مهاجرة من الديلم، اتجهت نحو الجنوب واستقرت في إقليم فارس، ودخل في خدمة مرداويج، ملك الدولة الزيارية، فمنحه ولاية صغيرة في أقصى الجنوب، هي ولاية الكرج الواقعة بين همذان وأصبهان. وبدأت الهجرة البويهية من هذه المنطقة.

[الموسوعة العربية العالمية – الدولة البويهية، والبداية والنهاية (٢١٢/١١)، والكامل في التاريخ (٨٧/٧)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخلفاء عزلاً وتوليةً وقهراً وغلبة وسلباً للأموال(١) -كما فعل الأتراك وزادوا عليه- وإن وجود الرفض في أي وسط وتمكنهم منه يجعل من ذلك الوسط بيئة خصبة للتقلبات السياسية والحروب والفتن المتواصلة[٢]، كما أنه يُوجد بيئة خصبة لإراقة الدماء باستهتار دونما حسيب أو رقيب.

المرحلة الرابعة: دور السلاجقة، وهم من أجناس الترك، ومنهم توزون(٣) أحد قوادهم، وقد تآمر ضد الخليفة المتقي وعزله.

المرحلة الخامسة والأخيرة: سقوط بغداد في يد التتار، عام (٦٥٦هـ) (٤).

وكان حال الدولة العباسية كأي دولة تجري عليها سنة الله الكونية، فقد بدأت بالعصر الذهبي لها، وهو عصر القوة، ثم سارت تتذبذب في جهة الضعف مرة والقوة أخرى -بحسب قوة الخليفة وأهليته للمقام الذي وضعه فيه، وبحسب تأثير البيئة المحيطة به- لينتهي أمر الخلافة العباسية إلى الانحطاط والشلل التام، ولتقضي نحبها بمؤامرة من الروافض، يمدهم في ذلك التتار؛ ذلك أنهم تمكنوا من الدولة تماماً، وباتوا يسيرون كل شؤونها.

وهذه العصور والمراحل المتعاقبة رغم أنها وجدت تحت غطاء واحد للدولة الإسلامية إلا أنها استطاعت أن توجد التجزئة السياسية؛ "إذ زاد ظهور العصبية، فقامت دول على أساسها، ولم يكن لها داعٍ لقيامها لولا فكرة العصبية التي حملتها، واللغة التي أحيتها من

---

١ - كما وقع للخليفة محمد بن أحمد الملقب بالقاهر بالله، فبعد أن عزل لم يبق معه شيء من ملابسه سوى قطعة عباءة يلتف بها، وفي رجله قبقاب خشبي، ويدور على المساجد يسأل الناس.

انظر البداية والنهاية (١١/٢٢٤).

(٢) سيأتي ذكر المحنة التي تعرض لها الإمام ابن الجوزي في خاتمة حياته، وكان سببها الروافض، وهي مثال أيضاً لما كانت تعيشه الحياة العلمية من تناحر مقيت أوجده الرفض.

٣ - توزون التركي، كان من خواص المتقي، وكان قد ولاه شرطة بغداد، فغدر به ولم يحل عليه الحول بعد ما فعل ذلك بالمتقي، وكان جباراً ظالماً فاسقاً فاتكاً، قتل خلقاً كثيراً وأخذ الأموال، وهلك في المحرم سنة أربع وثلاثين وثلاث مائة، وكانت وفاته بهيت.

[البداية والنهاية (١١/٢٠٣)، وشذرات الذهب (٢/٣٣٢)]

٤ - انظر التاريخ الإسلامي (٦/٢١٦).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

جديد، فظهرت الدولة السامانية(١)، والغزنوية(٢)، والخوارزمية(٣)، ولا شك فإن الطموح السياسي كان أساساً في نشأته، ثم نما باسم العصبية لدوامها، ودعم الشعب لها، كما انفصلت أجزاء عن الدولة رسمياً، وأعلنت عن قيام خلافة مستقلة فيها، فكانت الخلافة الأموية في الأندلس، والفاطمية في مصر، وأجزاء من إفريقية، ولم تكن هذه الدول على تفاهم فيما بينها، بل على العكس كانت معادية بعضها لبعض، وكل منها على صلة بأعداء الثانية، فالعباسيون في بغداد يصادقون حكام الفرنجة خصوم أمويي الأندلس.

---

١ – الدولة السامانية دولة فارسية أسسها سامان، وهو نبيل فارسي انحدر من بهرام جوبين الذي قاد ثورة عنيفة ضد البيت الحاكم في دولة الفرس. اتصل سامان بالدولة الإسلامية في عهد الخليفة الأموي هشام بن عبدالملك. فقد وفد على أسد بن عبدالله القسري والي خراسان الأموي فأكرمه وقهر أعداءه، فاعتنق الإسلام وسمى ابنه أسدًا تعبيرًا عن اعترافه بجميل أسد القسري عليه.

مد السامانيون نفوذهم تجاه الشرق، في بلاد الترك، وبلاد ما وراء النهر، فنشروا الإسلام وحضارته في تلك المناطق. واعتمدت عليهم الخلافة في ضرب أعدائها في المشرق

[الموسوعة العربية –السامانيون والحضارة الإسلامية العربية].

٢ – يرجع ظهور الدولة الغزنوية التي سميت بعاصمتها غزنة (مدينة مشهورة في طرف خراسان في حدود الهند) إلى سبكتكين أحد المجاهدين المسلمين، فقد ولاه السامانيون منطقة غزنة، ثم مد سلطانه في الشرق حيث ولاه السامانيون إقليم خراسان عام ٣٨٤هـ،٩٩٤م مكافأة له على قمع الثوار في بلاد ما وراء النهر. اشتهرت هذه الدولة في عهد محمود الغزنوي بن سبكتكين، الذي تولى السلطة من سنة ٣٨٨هـ، ٩٩٨م إلى سنة ٤٢١هـ، ١٠٣٠م. وامتاز عهده بالجهاد الإسلامي في إقليم الهند، ويقال إن غزواته وصلت إلى حدود هضبة الدكن، واعترفت به الخلافة سلطانًا مستقلاً.

[الموسوعة العربية –الدولة الغزنوية].

٣ – خوارزم إحدى بلاد ما وراء النهرين، كانت ضمن ما يسمى ببلاد خراسان قديمًا التي تضم معها بلاد: بلخ وبخارى ومرو وهرات وغزنة. تقع خوارزم على نهر أمو داريا الواقع في أراضي دولتي أوزبكستان وتركمانستان، وكانت عاصمتها خيوة، فتحها المسلمون في القرن الأول الهجري ضمن الفتوحات الإسلامية الأولى، وظلت مدة تحت حكم الأمويين ثم العباسيين بعد ذلك وتعرضت لسلطان المغول واحتلال تيمورلنك لها فيما بين القرن الثالث عشر والخامس عشر الميلاديين.

[الموسوعة العربية –خوارزم].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

هذا مع العلم أنه لا يوجد في دار الإسلام سوى خليفة واحد، والمسلمون جميعاً تضمهم دولة واحدة، وهذا يدل على ضعف الروح الإسلامية لدى المسلمين في ذلك العهد بالنسبة إلى ما كان عليه المسلمون الأوائل وفي الصدر الأول"[١].

أما الفترة الزمنية التي تعنينا بالدراسة هنا فهي جزء من مرحلة النفوذ السلجوقي، والذي امتد من عام (٤٤٧هـ) يوم دخول طغرل بك السلجوقي بغداد، إلى عام (٦٥٦هـ) يوم أن سقطت بغداد بيد هولاكو المغولي[٢]، والذي في عهده قضت دولة البويهيين نحبها، ثم استغاث به الخليفة لدرء خطر القائد البساسيري[٣]، فقضى عليه وأزال ما كان على أبواب المساجد من سب للصحابة عام (٤٤٨هـ)[٤].

وفي هذه المرحلة من مراحل العصر العباسي أصبح الخلفاء ألعوبة بيد السلطان السلجوقي، الذي جرد الخليفة من كل صلاحياته، جرياً منهم على ما سار عليه من قبلهم، ومع هذا "فلم يكن السلاجقة –وهم القوة المسيطرة– يتصرفون مع الخليفة ذلك التصرف السيئ الذي كان يقوم به من سبقهم، سواء من القادة الأتراك أم من البويهيين ... وإن سلوك السلاجقة مع الخلفاء الطيب نسبياً قد أعاد للخليفة هيبته أو مكانته"(٥).

وقد تعاقب في هذه الفترة عشرة من الخلفاء تفاوتت مدة خلافتهم بين سبع وأربعين سنة وبين سنة واحدة، وكان مما يميزهم أنهم كانوا "على درجة من العدل والتقوى والإحسان

---

١ – التاريخ الإسلامي (٧/٥).

٢ – هولاكو خان بن تولي خان بن جنكيز خان،كان طاغية من أعظم ملوك التتار، وكان شجاعاً مقداماً حازماً مدبراً ذا همة عالية وسطوة ومهابة وخبرة بالحروب، ومحبة في العلوم العقلية من غير أن يتعقل منها شيئاً، قتل من المسلمين شرقاً وغرباً ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم وسيجازيه على ذلك شر الجزاء، كان لا يتقيد بدين من الأديان وإنما كانت زوجته ظفر خاتون قد تنصرت، وكانت تفضل النصارى على سائر الخلق.

[البداية والنهاية (٢٤٨/١٣)، فوات الوفيات (٥٨٠/٢)، وتاريخ الإسلام (١٦٢/٤٩)].

٣ – أرسلان أبو الحارس البساسيري التركي، كان من مماليك بهاء الدولة، وكان أولاً مملوكاً لرجل من أهل مدينة بسا فنسب إليها فقيل له البساسيري، وتلقب بالملك المظفر، ثم كان مقدماً كبيراً عند الخليفة القائم بأمر الله لا يقطع أمراً دونه، وخطب له على منابر العراق كلها، ثم طغى وبغى وتمرد وعتا، وخرج على الخليفة والمسلمين ودعا إلى الخلافة الفاطميين.

[البداية والنهاية (٨٤/١٢)، وتاريخ الإسلام (٣٠/٣٠)].

٤ – البداية والنهاية (٧٣/١٢).

٥ – التاريخ الإسلامي (٢١٦/٦).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

والعطف على الناس، وقد أحبتهم الرعية حباً كبيراً؛ حتى ليعم الحزن البلاد عندما يتوفى أحد الخلفاء"(١).

ولقد كانت هذه الفترة التي عاش فيها الإمام ابن الجوزي هي فترة الانتعاش للدولة تارة والركود أخرى، والتي يقول عنها ابن خلدون[٢] في مقدمته: "ثم جاء في الدولة العباسية شأن الاستبداد على السلطان، وتعاور فيها استبداد الوزارة مرة والسلطان أخرى، وصار الوزير إذا استبد محتاجاً إلى استنابة الخليفة إياه لذلك؛ لتصح الأحكام الشرعية، وتجيء على حالها كما تقدمت؛ فانقسمت الوزارة حينئذ إلى وزارة تنفيذ، وهي حال ما يكون السلطان قائماً على نفسه، وإلى وزارة تفويض، وهي حال ما يكون الوزير مستبداً عليه "[٣].

وأدهى من ذلك ما وقع سنة (٥٠٧هـ) فقد " جاء مودود صاحب الموصل[٤] بعسكر ليقاتل ملك الفرنج الذي بالقدس فوقع بينهم معركة هائلة، ثم رجع مودود إلى الشام فصلى الجمعة في الجامع، وإذا بباطني يثب عليه بسكينه فجرحه فمات من يومه، فكتب ملك

---

١ - المصدر السابق (٦/٢١٥).

(١) عبد الرحمن بن محمد بن خلدون، مؤسس علم الاجتماع، ولد في تونس وينتمي إلى فرع من قبيلة كندة وكان أجداده يعيشون في حضرموت قبل الإسلام. دخل أجداده الأندلس، وبسقوط أشبيليا انتقلوا إلى تونس. وفيها درس العربية والقرآن، والفقه، والحديث ودرس العلوم العقلية والمنطق، وانتقل إلى مصر وتولى القضاء وبها مات -رحمه الله-.

[الموسوعة العربية العالمية - ابن خلدون].

(١) أحمد بن معد المستعلي العبيدي صاحب مصر ابن المستنصر ابن الظاهر ابن الحاكم ابن العزيز ابن المعز ابن المنصور ابن القائم ابن المهدي عبيد الله، ولي الأمر بعد أبيه المستنصر بالديار المصرية والشامية، وفي أيامه اختلت دولتهم، وضعف أمرهم، وانقطعت من أكثر مدن الشام دعوتهم، وتقاسمها الأتراك والفرنج.

[الوافي بالوفيات (٨/١١٩)، والنجوم الزاهرة (٥/١٤٢)].

(٤) قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكي بن آق سنقر المعروف بالأعرج، أخو نور الدين محمود، صاحب الموصل وله من العمر أربعون سنة، ومدة ملكه منها إحدى وعشرون سنة، وكان من خيار الملوك محببا إلى الرعية عطوفا عليهم محسنا إليهم

[البداية والنهاية (١٢/٢٦١)، ووفيات الأعيان (٥/٣٠٢)، وتاريخ الإسلام (٤١/٣٤٧)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفرنج إلى صاحب دمشق كتاباً يقول فيه:" إن أمة قتلت عميدها في يوم عيدها في بيت معبودها لحقيق على الله أن يبيدها"(١).

وهذا لا ينفي وجود الفتوحات الإسلامية على أيدي السلاطين، فقد سبق عهد ابن الجوزي أن استرجع المسلمون أنطاكية من الروم عام (٤٧٧هـ)، ومنبج عام (٤٦٨هـ) (٢).

هذا وقد عاصر الإمام ابن الجوزي سبعة من خلفاء الدولة العباسية ممن عاشوا العصر الثاني، وسنعرض لشيء من ذكرهم، مبينين أهم وأشهر الأحداث والتقلبات السياسية التي وقعت في أيامهم، وانعكاسات ذلك على الحياة السياسية، وآثارها على الخلافة الإسلامية بما يخدم الأطروحة، وهم:

الخليفة الأول: المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله (٤٨٧ هـ - ٥١٢هـ):

وصفه الإمام ابن الأثير(٣) بأنه كان: " لين الجانب، كريم الأخلاق، يحب اصطناع الناس، ويفعل الخير، ويسارع إلى أعمال البر والمثوبات، مشكور المساعي لا يرد مكرمة تطلب منه، وكان كثير الوثوق بمن يوليه، غير مصغٍ إلى سعاية ساعٍ، ولا ملتفت إلى قوله، ولم يعرف منه تلون وانحلال عزم بأقوال أصحاب الأغراض، وكانت أيامه أيام سرور للرعية، فكأنها من حسنها أعياد، وكان إذا بلغه ذلك فرح به وسره، وإذا تعرض سلطان أو نائب له

---

(١) تاريخ الخلفاء (ص٤٣٠).

(٢) التاريخ الإسلامي (٢٢٨/٦).

(٣) المؤرخ المشهور عز الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عبد الكريم الشيباني المعروف بابن الأثير، كان مؤلفاً نشيطاً بارعاً، استطاع أن يخلد اسمه بين كبار المؤرخين، ولد ونشأ في جزيرة ابن عمر، وسكن الموصل، وتجول في البلدان، وعاد إلى الموصل، فكان منزله مجمع الفضلاء والأدباء، وتوفي بها، له مصنفات كثيرة؛ منها: "الكامل في التاريخ" في عشرة مجلدات، وهو مطبوع متداول مرتب على السنين بلغ فيه إلى سنة (٦٢٩). وهو صاحب الكتاب المشهور "أُسْد الغابة في معرفة الصحابة" مطبوع أيضًا، و"تاريخ الأتابكة في الموصل"، وكذا كتاب "اللباب" الذي اختصر فيه كتاب "الأنساب" للسمعاني. توفي سنة (٦٣٠هـ) بالموصل.

[الوافي بالوفيات (٤٨/٧)، وطبقات الشافعية الكبرى (٢٩٩/٨)، السيرة الزنكية (٢١/٢)، والأعلام للزركلي (٣٣١/٤)]

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لأذى أحد بالغ في إنكار ذلك والزجر عنه، وكان حسن الحظ، جيد التوقعات، لا يقاربه فيها أحد، يدل على فضل غزير، وعلم واسع "[1].

وفي عهده "سنة اثنتين وتسعين انتشرت دعوة الباطنية بأصبهان، وفيها أخذت الفرنج بيت المقدس بعد حصار شهر ونصف، وقتلوا به أكثر من سبعين ألفاً، منهم جماعة من العلماء والعباد والزهاد، وهدموا المشاهد، وجمعوا اليهود في الكنيسة، وأحرقوها عليهم، وورد المستنفرون إلى بغداد فأوردوا كلاماً أبكى العيون، واختلفت السلاطين، فتمكنت الفرنج من الشام، وللأبيوردي[2] في ذلك:

مزجنا دماء بالدموع السواجم فلم يبق منا عرصة[4] للمراحم
وشر سلاح المرء دمع يفيضه إذا الحرب شبت نارها بالصوارم
فأيها[3] بني الإسلام إن وراءكم وقائع يلحقن الذرى بالمناسم[5]

وفي نفس العام "خرج محمد بن ملكشاه[6] على أخيه السلطان بركياروق فانتصر عليه، فقلده الخليفة ولقبه: غياث الدنيا والدين. وخطب له ببغداد، ثم جرت بينهما عدة

---

(١) الكامل في التاريخ (١٦٣/٩)، وتاريخ الخلفاء (ص ٤٢٦).

(٢) أَبُو المظَفَّرِ مُحَمَّدُ بنُ أَحْمَدَ بنِ مُحَمَّدٍ الأُسْتَاذُ، العَلاَّمَةُ، الأَكمل، أَبُو المظَفَّرِ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي العَبَّاسِ أَحْمَد بن مُحَمَّد بن أَحْمَدَ بنِ إِسْحَاقَ بن مُحَمَّدِ بنِ إِسْحَاقَ بن الحَسَنِ بنِ مَنْصُوْرِ بنِ مُعَاوِيَةَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عُثْمَانَ بنِ عَنْبَسَةَ بنِ عُتْبَةَ بنِ عُثْمَانَ بنِ عَنْبَسَةَ بن أَبِي سُفْيَانَ بن حَرْب بن أُمَيَّةَ الأُمَوِيّ، العَنبسِي، المعَاوِيّ، الأَبِيوَرْدي، اللُّغَوِيّ، شَاعِرُ وَقته، وَصَاحِبُ التَّصَانِيْفِ، فَالوَاسِطَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَبِي سُفْيَانَ خَمْسَةَ عَشَرَ أَباً.

[سير أعلام النبلاء (٢٦٥/٣٧)، وتاريخ الإسلام (٩٩/١١)].

(٣) كذا في المخطوط.

(٤) كذا في المخطوط.

(٥) الكامل في التاريخ (٢٠/٩)، وتاريخ الخلفاء (ص٤٢٧).

(٦) أبو الفتح محمد بن ملكشاه السلجوقي أبو شجاع محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان أخو السلطان سنجر لأبيه وأمه.

[وفيات الأعيان (٧١/٥)، والبداية والنهاية (١٥٧/١٢)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقعات"[1]، وهو واحد من الأحداث الدالة على الاضطرابات الداخلية حتى في البيت السلجوقي، والتي لم يكن للخليفة فيها منزع.

"وفي أيامه –أيضاً– بدأت الحروب الصليبية على المشرق الإسلامي"[2].

الخليفة الثاني: المسترشد بالله أبو المنصور الفضل بن المستظهر بالله (٥١٢ – ٥٢٩ هـ):

قال عنه السيوطي: "كان ذا همة عالية، وشهامة زائدة، وإقدام ورأي وهيبة شديدة، ضبط أمور الخلافة ورتبها أحسن ترتيب، وأحيى رسم الخلافة، ونشر عظامها، وشيد أركان الشريعة، وطرز أكمامها، وباشر الحروب بنفسه"[3]، وقال عنه ابن كثير:" وقد كان المسترشد شجاعاً مقداماً، بعيد الهمة، فصيحاً بليغاً، عذب الكلام، حسن الإيراد، مليح الخط، كثير العبادة، محبباً إلى العامة والخاصة، وهو آخر خليفة رؤي خطيباً"[4]، ومما حصل في عهده كما قال ابن الجوزي: "وزلزلت بغداد مراراً كثيرة، ودامت كل يوم خمس مرات أو ستاً والناس يستغيثون"[5].

وقد مات مقتولاً "على باب مراغة في يوم الخميس سابع عشر ذي الحجة، وحملت أعضاؤه إلى بغداد، وعمل عزاؤه ثلاثة أيام بعد ما بويع لولده الراشد"[6].

وكان سبب قتله أنه اختلف مع السلطان السلجوقي مسعود[7] فسار أحدهما للآخر، ففر أتباع الخليفة وثبت هو أمام مسعود، فأخذه وحبسه ومن معه في سجن في همذان، ثم وصل إلى السلطان سنجر السلجوقي عم مسعود فأمره برده إلى مقره، قال ابن كثير:" فلما

---

(١) تاريخ الخلفاء (ص ٤٢٨).

(٢) التاريخ الإسلامي (٦/٢٤٣).

(٣) تاريخ الخلفاء (ص٤٣١).

(٤) البداية والنهاية (١٢/٢٠٨).

(٥) تاريخ الخلفاء (ص٤٣٢).

(٦) البداية والنهاية (١٢/٢٠٨).

(٧) مسعود غياث الدين أبو الفتح بن محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان بن طغر بيك السلجوقي رباه بالموصل الأمير مودود ثم آقسنقر البرسقي ثم جوش بك، فلما هلك أخوه السلطان محمود طمعه جوش بك في السلطنة فجمع وحشد، والتقى أخاه فانكسر مسعود، ثم تنقلت به الأحوال واستقل بالملك.

[العبر (٤/١٢٧)، وشذرات الذهب (٤/١٤٥)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

كان مستهل ذي الحجة جاءت الرسل من جهة الملك سنجر إلى ابن أخيه يستحثه على الإحسان إلى الخليفة، وأن يبادر إلى سرعة رده إلى وطنه، وأرسل مع الرسل جيشاً ليكونوا في خدمة الخليفة إلى بغداد، فصحب الجيش عشرة من الباطنية، فلما وصل الجيش حملوا على الخليفة فقتلوه في خيمته وقطعوه قطعاً، ولم يلحق الناس منه إلا الرسوم... فاشتد حزن الناس على الخليفة المسترشد، وخرجت النساء في بغداد حاسرات عن وجوههن ينحن في الطرقات"(١)، ويقول ابن الأثير في حكاية مقتله:" وفارق الخليفة بعض من كان موكلاً به، وكانت خيمته منفردة عن العسكر فقصده أربعة وعشرون رجلاً من الباطنية ودخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة، ومثلوا به؛ فجدعوا أنفه وأذنيه، وتركوه عرياناً، وقتل معه نفر من أصحابه "(٢).

وهذا الحدث يعتبر أحد الدلائل الواضحة على عدم استقرار الخلافة في تلك الأيام، ونشوب الاضطرابات في كثير من أنحاء الدولة، والتي أودت بحياة الرجل الأول في الخلافة، وهو الخليفة نفسه، ولم يشفع له ما سبق من جميل صفاته.

ومن شعره:

أَنَا الأَشْقَرُ المدعو بالملاحَمِ ومَنْ يَمْلِكُ الدُّنيا بِغَيْرِ مُزَاحِمِ

ستبلغُ أَرْضَ الرُّوْمِ خَيْلِي وَتُنْتَضى بِأَقْصَى بِلَادِ الصِّيْنِ صَوَارِمِي

الخليفة الثالث: الراشد بالله أبو جعفر المنصور بن المسترشد بالله (٥٢٩ هـ - ٥٣٠ هـ).

قال عنه السيوطي: "وكان فصيحاً أديباً شاعراً شجاعاً سمحاً جواداً، حسن السيرة، يؤثر العدل ويكره الشر"(٣)، "وقد كان حسن اللون، مليح الوجه، شديد القوة مهيباً، أمه أم ولد"(٤)، إلا أنه خلع بعد عام من توليه الخلافة.

---

(١) البداية والنهاية (٢٠٨/١٢).

(٢) الكامل في التاريخ (٢٨٣/٩).

(٣) تاريخ الخلفاء (ص٤٣٦).

(٤) البداية والنهاية (٢١٢/١٢).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ويحكي الإمام السيوطي قصة خلعه فيقول: "ولما عاد السلطان مسعود إلى بغداد خرج هو إلى الموصل، فأحضروا القضاة والأعيان والعلماء وكتبوا محضراً فيه شهادة طائفة بما جرى من الراشد من الظلم، وأخذ الأموال، وسفك الدماء، وشرب الخمر، واستفتوا الفقهاء في من فعل ذلك: هل تصح إمامته؟ وهل إذا ثبت فسقه يجوز لسلطان الوقت أن يخلعه، ويستبدل خيراً منه؟ فأفتوا بجواز خلعه، وحكم بخلعه أبو طاهر بن الكرخي قاضي البلد، وبايعوا عمه محمد بن المستظهر، ولقب المقتفي لأمر الله ... ومرض الراشد بظاهر أصبهان مرضاً شديداً، فدخل عليه جماعة من العجم كانوا فراشين معه فقتلوه بالسكاكين، ثم قتلوا كلهم، وذلك في سادس عشر رمضان سنة اثنتين وثلاثين، وجاء الخبر إلى بغداد فقعدوا للعزاء يوماً واحداً"[1].

وهذا أيضاً دليل آخر على ضياع هيبة الخلافة، وكثرة التقلبات السياسية، وامتداد يد السلطان السلجوقي للتصرف في تولية خليفة المسلمين وعزله.

الخليفة الرابع: المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر بالله (٥٣٠ هـ . ٥٥٥ هـ).

وقد تولى الخلافة بعد أن بويع له بها خلفاً لابن أخيه المنصور بن المسترشد بالله.

قال عنه الإمام الذهبي[2]:" من سَرَوات[3] الخلفاء، كان عالِمًا، ديِّنًا، شُجاعًا، حليمًا، دمِث الأخلاق، كامل السُّؤدُد، خليقًا للإمامة، قليل المِثْل فِي الأئمَّة[4] عليهم السلام، لا يجري في دولته أمرٌ وإن صَغُر إلا بتوقيعه"[5].

---

(١) تاريخ الخلفاء (ص٤٣٦)، والعبر في خبر من غبر، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، مطبعة حكومة الكويت، ١٩٨٤، تحقيق د. صلاح الدين المنجد (٦٣٢/٣)، والبداية والنهاية (٢١٢/١٢).

(٢) محمد بن أحمد بن عثمان بن قايمار أبو عبد الله، شمس الدين الذهبي، تركماني الأصل من أهل دمشق شافعي، إمام حافظ مؤرخ، كان محدث عصره، كان يرحل إليه من سائر البلاد، وكان فيه ميل إلى آراء الحنابلة.

[طبقات الشافعية الكبرى (٢١٦/٥)، والنجوم الزاهرة (١٠ / ١٨٣)، ومعجم المؤلفين (٢٨٩/٨)].

٣-(سَرُوَ): سَرَاوَةً وَسَرْوَاً؛ شَرُفَ فَهُوَ سَرِيٌّ (وَجَمْعُهُ:) أَسْرِيَاءُ، وَسُرَاةٌ (وَجَمْعُ الجَمْعِ:) سَرَوَاتٌ.

[المعجم الوسيط (١/ ٤٢٨)]

٤- يريد الخلفاء.

(٥) تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير الأعلام، لشمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، دار الكتاب العربي، لبنان، بيروت، ١٩٨٧م، الطبعة الأولى، تحقيق د. عمر عبد السلام تدمري (١٧٢/٣٨).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقال عنه السيوطي: "وسبب تلقيبه بالمقتفي: أنه رأى في منامه قبل أن يستخلف بستة أيام رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول له: سيصل هذا الأمر إليك؛ فاقتفِ لأمر الله؛ فلقب المقتفي لأمر الله، وبعث السلطان مسعود بعد أن أظهر العدل، ومهد بغداد، فأخذ جميع ما في دار الخلافة من دواب وأثاث وذهب وستور وسرادق، ولم يترك في إصطبل الخلافة سوى أربعة أفراس وثمانية أبغال برسم الماء[1]، فيقال: إنهم بايعوا المقتفي على أن لا يكون عنده خيل ولا آلة سفر"[2].

وجرى في عهده من الأحداث في "سنة ثلاث وثلاثين [أنه] كان ببحترة[3] زلزلة عظيمة عشرة فراسخ في مثلها؛ فأهلكت خلائق، ثم خسف ببحترة، وصار مكان البلد ماء أسود، وفيها استولى الأمراء على مغلات البلاد، وعجز السلطان مسعود ولم يبق له إلا الاسم، وتضعضع أيضاً أمر السلطان سنجر[4]؛ فسبحان مذل الجبابرة! وتمكن الخليفة المقتفي، وزادت حرمته، وعلت كلمته ... وفي سنة ثلاث وأربعين حاصرت الفرنج دمشق فوصل إليها نور الدين محمود بن زنكي، وهو صاحب حلب يومئذٍ، وأخوه غازي صاحب الموصل؛ فنصر المسلمون -ولله الحمد- وهزم الفرنج"[5].

الخليفة الخامس: المستنجد بالله أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله (٥٥٥ هـ. ٥٥٦ هـ):

"وكان المستنجد موصوفاً بالفهم الثاقب، والرأي الصائب، والذكاء الغالب، والفضل الباهر، له نظم بديع، ونثر بليغ، ومعرفة بعمل آلات الفلك والإسطرلاب[6] وغير ذلك"[1].

---

١ - أي للسقاية والإتيان بالماء.

(٢) تاريخ الخلفاء (ص٤٣٧)، والكامل في التاريخ (٢٩٢/٩).

(٣)رَوضةٌ في وَسطِ أَجَأَ أَحدِ جَبليْ طَيِّء قُرْب جَوّ كأَنَّهَا مُسَمَّاة بالقَبِيلة.

[تاج العروس (١٣٠/١٠)].

(٤) سَنْجَرُ بنُ مَلِكْشَاه بنِ أَلْبَ أَرْسَلاَنَ الغُزِّيُّ، السُّلْطَانُ، مَلِكُ خُرَاسَانَ، مُعِزُّ الدِّيْنِ سَنْجَرُ ابْنُ السُّلْطَانِ مَلِكْشَاه بنِ أَلب أَرْسَلاَن بنِ جغرِبَك بنِ مِيكَائِيْلَ بنِ سَلْجُوْقٍ الغُزِّيّ، التركِي، السَّلْجُوْقِيّ، صَاحِب خُرَاسَانَ وَغَزْنَة وَبَعْض مَا وَرَاء النَّهْر.

[سير أعلام النبلاء (٣٧٢/٣٩)، وتاريخ الإسلام (٤٥/١٢)].

(٥) تاريخ الخلفاء (ص٤٣٨).

٦ - من الآلات الفلكية المشهورة.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ومما كان في عهده:" سنة اثنتين وستين جهز السلطانُ نورُ الدِّيْنِ الأميرَ أَسَدَ الدِّيْنِ شيركوه[٢] في ألفي فارس إلى مصر؛ فنزل بالجيزة، وحاصر مصر نحو شهرين؛ فاستنجد صاحبها بالفرنج، فدخلوا من دمياط لنجدته، فرحل أسد الدين إلى الصعيد، ثم وقعت بينه وبين المصريين حرب انتصر فيها على قلة عسكره وكثرة عدوه"[٣].

"وفي أيامه اتسعت رقعة ميدان القتال بين المسلمين والصليبيين، وكانت الساحة بلاد الشام ومصر، ويقود القتال محمود نور الدين زنكي في كلا الساحتين، حيث ضعفت الدولة العبيدية[٤] لدرجة كبيرة، وهذا ما جعل نور الدين محمود يتولى أمر الدفاع عن مصر.

وفي أيامه هاجمت الكرج (٥٥٧هـ) بلاد المسلمين، ونهبوا وسبوا وقتلوا كثيراً؛ فاجتمع لهم حكام أذربيجان[٥] ومراغة[٦] وخلاط[٧] وثأروا منهم"[٨].

---

(١) سير أعلام النبلاء، لأبي عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز الذهبي، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٣هـ، الطبعة التاسعة، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ومحمد نعيم العرقسوسي (٤١٨/٢٠).

(٢) الملك المجاهد أسد الدين أبو الحارث شيركوه ابن صاحب حمص ناصر الدين محمد ابن الملك أسد الدين شيركوه بن شاذي، وزير العاضد، وتفسير شيركوه أسد الجبل.

[سير أعلام النبلاء (٣٩/٢٣)، والوافي بالوفيات (١٢٦/١٦)].

(٣) تاريخ الخلفاء (ص٤٤٤)، وانظر تاريخ الإسلام (٩/٣٩).

٤ – المشهورة بلقب الدولة الفاطمية.

(٥) أذربيجان بفتح أوله وإسكان ثانيه بعده راء مهملة مفتوحة وباء مكسورة بعدها ياء وجيم وألف ونون، وأذربيجان وقزوين وزنجان كور تلى الجبل من بلاد العراق وتلى كور إرمينية من جهة المغرب.

[معجم ما استعجم (١٢٩/١)، ومعجم البلدان (١٢٨/١)].

(٦) مراغة بالفتح والغين المعجمة بلدة مشهورة عظيمة أعظم وأشهر بلاد أذربيجان طولها ثلاث وسبعون درجة وثلث وعرضها سبع وثلاثون درجة وثلث، وموقعها في الإقليم الرابع من الإقاليم السبعة.

[صبح الأعشى (٣٦١/٤)، ومعجم البلدان (٩٣/٥)]..

(٧) خلاط بكسر أوله وآخره طاء مهملة البلدة العامرة المشهورة ذات الخيرات الواسعة والثمار اليانعة طولها أربع وستون درجة ونصف وثلث وعرضها تسع وثلاثون درجة وثلثان في الإقليم الخامس وهي من فتوح عياض بن غنم.

[معجم ما استعجم (٥٠٧/٢)، ومعجم البلدان (٣٨١/٢)]..

(٨) التاريخ الإسلامي (٧/٥).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخليفة السادس: المستضيء بأمر الله الحسن بن المستنجد بالله (٥٦٦ هـ - ٥٧٥ هـ):

أمه أم ولد أرمينية اسمها غضة، بويع له بالخلافة يوم موت أبيه، نادى برفع المكوس، ورد المظالم، وأظهر من العدل والكرم ما لم يُرَ في أعمارنا، وفرق مالاً عظيما على الهاشميين والعلويين والعلماء والمدارس والربط، وكان دائم البذل للمال ليس له عنده وقع، ذا حلم وأناة ورأفة، ولما استخلف خلع على أرباب الدولة وغيرهم، فحكى خياط المخزن أنه فصل ألفا وثلاثمائة قباء إبرسيم، وخطب له على المنابر ببغداد، ونثرت الدنانير كما جرت العادة ... ومما قيل فيه:

يا إمام الهدى علوت على الجو د بمال وفضة ونضار[1]

فوهبت الأعمار والأمن والبل دان في ساعة مضت من نهار[2]

إلا أنه احتجب عن أكثر الناس فلم يركب إلا مع الخدم، ولا يدخل عليه غيرهم، وفي خلافته انقضت دولة بني عبيد[3] وخطب له بمصر، وضربت السكة[4] باسمه ... وصنفت كتاباً سميته: النصر على مصر[5].

وقال الذهبي: "في أيامه ضعف الرفض ببغداد ووهى، وأمِن الناس، ورزق سعادة عظيمة في خلافته، وخطب له باليمن "[6].

١- (النُّضَارُ): الخالصُ من كلِّ شيء؛ يُقال: ذَهَبٌ نُضَارٌ.

[المعجم الوسيط (٢/ ٩٢٩)].

(٢) انظر تاريخ الإسلام (٤٠/١٦٦)، وتاريخ الخلفاء (ص٤٤٥).

٣- المشهورة بلقب الدولة الفاطمية.

٤- العُمْلَةُ المتَدَاوَلَةُ.

(٥) تاريخ الخلفاء (ص٤٤٥).

(٦) انظر: تاريخ الإسلام (٤٠/١٦٧).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الخليفة السابع: الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله (٥٧٥ هـ. ٦٢٢هـ):

لم يكن في أيامه خليفة سواه، "أمه أم ولد تركية اسمها زمرد، وبويع له عند موت أبيه في مستهل ذي القعدة".

وقد اختلف المؤرخون للناصر في سيرته بين الناس، "ولم يل الخلافة أحد أطول مدة منه؛ فإنه أقام فيها سبعة وأربعين سنة، ولم تزل مدة حياته في عز وجلالة وقمع الأعداء، واستظهار على الملوك، ولم يجد ضيماً، ولا خرج عليه خارجي إلا قمعه، ولا مخالف إلا دفعه، وكل من أضمر له سوءاً رماه الله بالخذلان، وكان –مع سعادة جده– شديد الاهتمام بمصالح الملك لا يخفى عليه شيء من أحوال رعيته كبارهم و صغارهم ... وكان الناصر إذا أطعم أشبع، وإذا ضرب أوجع، وله مواطن يعطي فيها عطاء من لا يخاف الفقر"، وقال ابن النجار:" دانت السلاطين للناصر، ودخل في طاعته من كان من المخالفين، وذلت له العتاة والطغاة، وانقهرت بسيفه الجبابرة، واندحض أعداؤه، وكثر أنصاره، وفتح البلاد العديدة، وملك من الممالك ما لم يملكه أحد من الخلفاء والملوك، وخطب له ببلاد الأندلس وبلاد الصين، وكان أشد بني العباس تنصدع لهيبته الجبال"(١).

وأما ابن الأثير فله رأي آخر فيه فيقول:" كان الناصر سيئ السيرة، خربت في أيامه العراق مما أحدثه من الرسوم وأخذ أموالهم وأملاكهم، وكان يفعل الشيء وضده، وكان يرمي بالبندق ويغوي الحمام"(٢).

وتوسط الموفق عبد اللطيف(٣) فقال:" وفي وسط ولايته اشتغل برواية الحديث، واستناب نواباً في الإجازة عنه والتسميع، وأجرى عليهم جرايات"(٤).

---

(١) تاريخ الخلفاء (ص٤٤٨).

(٢) المصدر السابق (ص٤٥١).

(٣) المَوَفَّقُ، عَبْدُ اللَّطِيْفِ بنُ يُوْسُفَ بنِ مُحَمَّدٍ المَوْصِلِيُّ، الشَّيْخُ، الإِمَامُ، العَلاَّمَةُ، الفَقِيْهُ، النَّحْوِيُّ، اللُّغَوِيُّ، الطَّبِيْبُ، ذُو الفُنُوْنِ، مُوَفَّقُ الدِّيْنِ، أَبُو مُحَمَّدٍ عَبْدُ اللَّطِيْفِ ابْنُ الفَقِيْهِ يُوْسُفَ بنِ مُحَمَّدِ بنِ عَلِيِّ بنِ أَبِي سَعْدٍ المَوْصِلِيُّ، ثُمَّ البَغْدَادِيُّ، الشَّافِعِيُّ، نَزِيْلُ حَلَبَ، وَيُعْرَفُ قَدِيْماً بِابْنِ اللَّبَّادِ.

[سير أعلام النبلاء (٣٥٠/٤٢)، والعبر في خبر من غبر (١١٥/٥)، مرآة الجنان (٦٨/٤)].

(٤) تاريخ الإسلام (٨٧/٥).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

"وفي عهده ضعف أمر الصليبيين، وظهر الأيوبيون، وعلا سلطانهم، وكان الجميع يخطب له، وفتح صلاح الدين القدس عام (٥٨٣هـ)" [١].

ختاماً: يظهر من خلال هذه اللمحة المقتضبة عن عصور الخلفاء العباسيين على الصعيد الداخلي، والمراحل التي مرت على الخلافة والخلفاء الذين عاصرهم الإمام ابن الجوزي.. يظهر من ذلك كثرة الاضطرابات في الحياة السياسية لقصور وقع في الخلافة العباسية، ووجود أعاصير من الفتن كانت تجوب بالعالم الإسلامي فتعصف به، وضياع شيء كبير من هيبة الخلافة وذهابها لصالح السلاطين والوزراء، ولعل ما وقع للإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في فترة محنته مع الروافض كان يعبِّر أوضحَ تعبيرٍ عن الاضطراباتِ والمحنِ والفتنِ التي لاحقتِ الدولةَ العبَّاسيةَ وترددت في جنباتها الزمانية والمكانية بعد تجاوزها مرحلة الفتوة والشباب إلى مرحلة الشيخوخة والضعف .

وقد لخص الإمام السيوطي-رحمه الله- هذه الفترة الزمنية بقوله:" في المائة الخامسة: أخذ الفرنج الشام وبيت المقدس، وفي المائة السادسة: كان الغلاء الذي لم يسمع بمثله منذ زمن يوسف عليه السلام، وكان ابتداء أمر التتار"[٢].

---

(١) التاريخ الإسلامي (٦/٣١٣).

(٢) تاريخ الخلفاء (ص٥٢٦).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المطلب الثالث: الحالة العلمية

كان العصر العباسي يعد أنموذجاً ضخماً لعصر النمو الفكري في شتى النواحي العلمية لكل وارد عليه من بلاد الدنيا، فكل العلوم الدينية التي كانت نشأتها في العصر الأموي استكملت نموها في العصر العباسي وترعرعت وبعضها شب عن الطوق، وكثر المشتغلون بها، وتعددت مؤلفاتهم، ولم يقنع بعضهم بما وجد من ذلك، بل ذهب يبحث ويجمع من تراث الأمم الأخرى، وخاصة التراث اليوناني، وتوافرت الجهود من أجل ترجمة ما يمكن من تلك الكتب، مستعينين في ذلك بحلقة الوصل التجارية التي ساعدت كثيراً في بناء العلاقات الطيبة مع الشعوب غير الإسلامية، وقد نشطت تلك الحركة خاصة في عهد الرشيد والمأمون، وكان لخزانة الكتب التي أنشأها المأمون فضل كبير في تشجيع هذه الحركة، وفي المقابل وكأثر للغوص في علم المنطق والفلسفة وأترابه فقد اتسعت دائرة الجدل في الدين، وعلا صوت الزنادقة الناطقين بتلك العلوم، وامتحن أكابر العلماء فضلاً عن غيرهم في مسلمات الدين.

كما نشطت حركة التأليف في فروع العلم المختلفة نشاطًا ملحوظًا طوال هذه الفترة، وقدمت دولة الخلافة المترامية الأطراف علماء أفذاذاً يعترف لهم العالم كله – حتى يومنا هذا – بالفضل والمكانة[1]، فقد عاش في عهد الدولة العباسية أئمة الفقه الأربعة: أبو حنيفة (ت ١٥٠ هـ)، ومالك (ت ١٧٩ هـ)، والشافعي (ت ٢٠٤ هـ)، وابن حنبل (ت ٢٤١ هـ).

وتألق اسم أئمة المحدِّثين الستة: البخاري (ت٢٥٦هـ) ومسلم (ت٢٦١هـ)، وأبو داود (ت ٢٧٥هـ)، وابن ماجه (ت٢٧٣هـ)، والترمذي (ت ٢٧٩ هـ)، والنسائي (ت ٣٠٣هـ)، إضافة إلى بروز عدد من أئمة الحديث.

وأما في مجال العلوم اللغوية فقد وجد أعلام يضيق عنهم الحصر، منهم المبرِّد صاحب الكامل (ت ٢٨٥هـ)، والزَّجَّاج (ت٣١١هـ)، وأبو على الفارسي(ت٣٧٧هـ)، وتلميذه ابن فارس (ت٣٩٠هـ)، وابن جنى (ت٣٩٢هـ)، وأبو محمد القاسم بن علي الحريري (ت٥١٦هـ).

---

(١) سيأتي في ثنايا الكتاب الترجمة لمعظم من سيذكرون هنا من العلماء، لمناسبة ذكرهم هناك.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ويقف شامخًا بين أعلام المؤرخين في صدر العصر العباسي الثاني أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت٣١٠هـ) الذي عاش في خلافة المقتدر بالله، وعاصر فترة التحول المهمة التي انتقلت فيها الخلافة العباسية من عصرها الأول–عصر القوة السياسية المركزية – إلى عصرها الثاني الذي بدأت فيه السلطة المركزية تضعف ضعفًا ملحوظًا، وهكذا شهد الطبري معظم عصر نفوذ الأتراك.

وقد لمع عدد آخر من المؤرخين في المراحل المتأخرة من العصر العباسي الثاني، لعل أبرزهم عز الدين ابن الأثير المتوفى (ت٦٣٠هـ)، وتوقف في روايته التاريخية عند أحداث سنة (٦٢٩هـ)، وقد شهد نهاية فترة النفوذ السلجوقى، وعاش شطراً من حياته في فترة ما بعد السلاجقة، وعاصر مرحلة مهمة في تطور الحروب الصليبية إبّان سلطنة صلاح الدين الأيوبي.

يضاف إلى هؤلاء ياقوت الحموي (ت٦٢٦هـ) أشهر الجغرافيين في دولة الخلافة، والشيخ الرئيس ابن سينا (ت٤٢٨هـ)، وأبو حامد الغزالي (ت٥٠٥هـ).

وكان للتقدم العلمي الكبير الذي سانده الخلفاء، كما فعل المعتضد لما أدر الأموال على الأئمة والمؤذنين والعلماء والقراء، وأجرى الجرايات على الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين والنحاة والشعراء والنسابين والأطباء والحساب[1].. كان للتقدم العلمي الذي شهده هذا العصر أثره الملحوظ في تحقيق الازدهار الاقتصادي القائم على أسس علمية صحيحة، وأصبحت بغداد التي بناها الخليفة المنصور أعظم بلاد الدنيا، ودرة الحضارة الإسلامية؛ فكانت مليئة بدور العلم من مدارس ومكتبات، كما شيدت بها الجسور والمستشفيات والمراصد وغير ذلك.

وقد أدى امتداد الدول العباسية على مساحة جغرافية واسعة إلى اختلاط العرب بغيرهم من الأمم كالفرس والروم والهنود والصينيين وغيرهم، وقد أخذ العرب عن أولئك الأقوام علوماً جديدة أضافوها إلى ما لديهم من العلوم، وقد ميز كُتابهم بين العلوم التي تتصل بالقرآن والدين من جهة، وسموها الشرعية أو النقلية، والعلوم التي أخذوها عن غيرهم من الأمم وسموها العلوم العقلية أو الحِكمية.

---

(١) انظر: الكامل في التاريخ (٣٨٧/٧).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وبذلك شهد عصر الدولة العباسية نهضة فكرية وعلمية واسعة، فقد أنشئت في عهدها الكثير من المدارس العلمية، كتلك التي أنشأها الوزير نظام الملك لنشر المذهب السني بداية من بغداد (٤٥٩هـ) حتى عرفت بالمدارس النظامية، وأخذت اسمها لقبه: (نظام الملك)، ثم امتدت إلى بغداد وبلخ ونيسابور وهراة وأصفهان والبصرة والموصل، حتى قال السبكي:"كان لنظام الملك في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة"(١).

كما نشطت حركة النقل والترجمة بعد أن تقدمت صناعة الورق، وظهر عدد من الوراقين "يقومون بنسخ الكتب، واتخذ العلماء والأدباء أماكن يجتمعون فيها للتزود من العلم، فكثرت المكتبات التي تزخر بالكتب الدينية والأدبية، وأصبحت هذه المكتبات من أهم مراكز الثقافة الإسلامية في ما بعد"(٢)، وقد عمل الخلفاء العباسيون على إمداد بيت الحكمة – الذي قيل إن هارون الرشيد هو الذي وضع أساسه– بمختلف الكتب، وظلت هذه الخزانة قائمة حتى استولى التتار على بغداد سنة (٦٥٦هـ)"(٣).

ووجد ما يعرف بديوان الإنشاء، الذي كان يستقطب الأدباء واللغويين، وقد ذكر ابن خلكان "أن أبا محمد بن عبد الله بن بري (ت٨٢٥هـ) اشتهر بالنحو واللغة والرواية، وأنه كان يراجع كل ما يحرر من الرسائل في ديوان الإنشاء، ويصلح ما فيها من لغة أو نحو قبل أن ترسل إلى الملوك والأمراء(٤).

يضاف لما سبق ما عرف وذاع عن بعض الخلفاء من العلم والأدب والبلاغة، ومن كان منهم محباً للعلماء.

كما كان لأمثال الوزير ابن هبيرة (ت٥٥٠ هـ) في الدولة العباسية –وكان حنبلياً – سعي للنهوض بالدولة العباسية، واستعادة هيبتها، فقرب ابن الجوزي لمجالسه واتخذه مستشاراً.. كانت له يد أخرى تعمل في هذه النهضة العلمية المشهودة، فقد كان يستقدم

---

(١) طبقات الشافعية الكبرى، لتاج الدين بن علي بن عبد الكافي السبكي، هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤١٣هـ، الطبعة الثانية، تحقيق د. محمود محمد الطناحي، ود. عبد الفتاح محمد الحلو (١٣٧/٣).

(٢) وفيات الأعيان (١٥٢/١-١٥٣).

(٣) المصدر السابق (١٥٢/١-١٥٣).

(٤) المصدر السابق (٢٩٢/٢-٢٩٣).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

العلماء كما فعل مع هبة الله بن يحيى البوقي الفقيه الواسطي الذي كان عارفاً بالمذهب الشافعي وبالاختلاف والفرائض[1].

ولعل نظرة على بعض الأعلام الذين عاصرهم الإمام ابن الجوزي ودرس على أيديهم -وانتقاهم انتقاء- أو كانوا له قرناء يُدَرك بها عِظم الحركة العلمية التي كانت تسري في جسد الأمة حينذاك؛ فمن هؤلاء:

أيام الخليفة المسترشد: شمس الأئمة أبو الفضل إمام الحنفية، وأبو الوفاء ابن عقيل الحنبلي، وقاضي القضاة أبو الحسن الدامغاني.

وممن مات أيام المقتفي من الأعلام: ابن الأبرش النحوي، ويونس بن مغيث، وجمال الإسلام بن المسلم الشافعي، وأبو القاسم الأصفهاني صاحب الترغيب، والمازري المالكي صاحب كتاب (المعلم بفوائد مسلم)، والزمخشري، وابن عطية صاحب التفسير، وأبو السعادات ابن الشجري، والإمام أبو بكر بن العربي، والقاضي عياض، والحافظ أبو الوليد بن الدباغ وأبو الأسعد هبة الرحمن القشيري، والشهرستاني صاحب (الملل والنحل).

وممن مات في أيام المستنجد من الأعلام: الديلمي صاحب (مسند الفردوس)، والعمراني صاحب (البيان) من الشافعية، والوزير ابن هبيرة، والشيخ عبد القادر الجيلي، والإمام أبو سعيد السمعاني.

وممن مات أيام المستضيء من الأعلام: ابن الخشاب النحوي، وملك النحاة أبو نزار الحسن بن صافي، والحافظ أبو العلاء الهمذاني، والحافظ الكبير أبو القاسم ابن عساكر.

ويعتبر المستضيء أحد الخلفاء الذين توثقت الصلة بينهم وبين الإمام ابن الجوزي، وبلغ شأواً عظيماً في زمنه، حتى أنه كتب كتاباً سماه (المصباح المضيء في دولة المستضيء)، وكان المستضيء شديد الحرص على حضور دروس ابن الجوزي، وتتفق الأدبيات الحنبلية على أن الشيخ قوي اتصاله بالخليفة المستضيء، حتى أنه أمر سنة (٥٧٤هـ) بكتابة لوح على قبر الإمام أحمد مكتوب فيه: "هذا قبر تاج السنة، وحيد الأمة، العالي الهمة، العالم العابد الفقيه

(١) طبقات الشافعية الكبرى (٤/ ٤٢٢).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الزاهد الورع المجاهد، العامل بكتاب الله وسنة رسول الله، الإمام أبي عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني "[1].

بل إن وجود مثل الخليفة الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء بأمر الله الذي "أجاز له جماعة: منهم أبو الحسين عبد الحق اليوسفي، وأبو الحسن علي بن عساكر البطايحي، وشهد وأجاز هو لجماعة فكانوا يحدثون عنه في حياته ويتنافسون في ذلك، رغبة في الفخر لا في الإسناد".. وجود مثل هذا الخليفة وأضرابه يدل بوضوح على أن الخلفاء كانوا رواد هذه الحركة العلمية، أو على الأقل يضربون بسهم وافر فيها.

وممن مات في أيام الناصر من الأعلام: الحافظ أبو طاهر السلفي، والكمال أبو البركات ابن الأنباري، وابن بشكوال، وابن ملكون النحوي، وعبد الحق الإشبيلي، وأبو زيد السهيلي صاحب (الروض الأنف)، والحافظ أبو موسى المديني، وابن بري اللغوي، وأبو القاسم بن فُيره الشاطبي صاحب قصيدة الشاطبية في القراءات السبع، وأبو السعادات ابن الأثير صاحب (جامع الأصول)، وخلائق آخرون.

كما أن مجالس الإمام ابن الجوزي كانت لا تخلو من أمير أو سلطان أو خليفة على حرص منهم في ذلك، على كثرة ما كان يجتمع في مجالسه من الخلق ممن يعدون بالآلاف.

ولقد كان لابن الجوزي دور كبير ومشاركة فعالة في الخدمات الاجتماعية والعلمية، فقد بنى مدرسة بدرب دينار، وأسس فيها مكتبة كبيرة، ووقف عليها كتبه، وكان يدرس أيضاً بعدة مدارس ببغداد[2].

يقول الدكتور يحي محمود بن جنيد محقق مقدمة كتاب (رفع البأس عن بني العباس لجلال الدين السيوطي):" ويفيدنا كتاب رفع البأس في الخروج بجملة من النتائج... من أهمها:

– أن دور العباسيين لم ينحصر في الإمارة والحكم، بل كان من بينهم علماء وفقهاء وأدباء وشعراء ونحاة مميزون.

– أن كثيراً منهم تولوا القضاء في بغداد والبصرة على زمن الخلافة العباسية"[1].

---

(١) المنتظم (٢٨٣/١٠).

(٢) انظر: تاريخ الإسلام (٢٩٦/٤٢).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

ختاماً: يظهر من خلال الحياة الدعوية للإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى ما كان يكسو تلك الفترة من حضور كبير للدعاة والعلماء بين المسلمين، كما أن وجود نبغاء الإسلام ومشاهير العلماء في تلك الفترة الزمنية على طولها أكبر دليل على الانتعاش العلمي في تلك الفترة، وهو مما يصب في نشاط الحالة الدعوية للأمة في خلال تلك الفترة، على ما تخللها من أمور ذمها الإمام ابن الجوزي نفسه في كثير من كتبه، ومنها كتابه الذي هو محل تحقيقنا، كالركون إلى الدنيا، والافتتان بها، واللهث خلف سرابها وملذاتها الفانية.

(١) انظر مقدمة الكتاب.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المبحث الثاني

ترجمة العلامة ابن الجوزي

وفيه سبعة مباحث:

المبحث الأول: اسمه ونسبه.

المبحث الثاني: مولده ونشأته.

المبحث الثالث: شيوخه وتلاميذه.

المبحث الرابع: عقيدته ومذهبه الفقهي.

المبحث الخامس: ثناء العلماء عليه.

المبحث السادس: آثاره.

المبحث السابع: وفاته.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المطلب الأول: اسمه ونسبه

هو: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد بن علي بن عبيد الله بن عبد الله بن حمادي بن أحمد بن محمد بن جعفر بن عبد الله بن القاسم بن النضر بن القاسم بن محمد بن عبد الله القاسم بن محمد بن أبي بكر الصديق رضي الله عنه، القرشي التيمي البكري البغدادي، الفقيه الحنبلي، شيخ وقته، وإمام عصره، الحافظ الواعظ المفسر المؤرخ الأديب، صاحب التصانيف، أحد أفراد العلماء، المعروف بابن الجوزي.

سبب تسميته بابن الجوزي:

اختلف في ذلك:

فقيل: إن جده جعفر نسب إلى فرضة من فرض البصرة، يقال لها جوزة.

وقال المنذري: هو نسبة إلى موضع يقال له: فرضة الجوز.

وقيل: منسوب إلى محلة بالبصرة تسمى محلة الجوز.

وقيل: نسبته إلى مشرعة الجوز من محال البصرة.

وقيل: كانت بداره في واسط جوزة لم يكن بواسط جوزة سواها.

قال ابن خلكان: "الجوزي بفتح الجيم وسكون الواو بعدها زاي. هذه نسبة إلى فرضة الجوز، وهو موضع مشهور، ورأيت أن جده كان من مشرعة الجوز، إحدى محال بغداد بالجانب الغربي"[1].

وكان أهله تجاراً في النحاس، ولهذا يوجد في بعض سماعاته القديمة: عبد الرحمن بن علي الجوزي الصفار[2].

---

(١) انظر: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، لعبد الحي بن أحمد بن محمد العكبري الحنبلي، دار ابن كثير، دمشق، ١٤٠٦هـ، الطبعة الأولى، تحقيق عبد القادر الأرنؤوط، محمود الأرناؤوط (٤/٣٣٠)، ووفيات الأعيان (٣/١٤٢)، وتاريخ ابن الوردي، لزين الدين عمر بن المظفر الشهير بابن الوردي، دار الكتب العلمية، لبنان بيروت، ١٩٩٦م، الطبعة الأولى (٢/١١٦)، ومرآة الجنان وعبرة اليقظان، لأبي محمد عبد الله بن أسعد بن علي بن سليمان اليافعي، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٣م. (٣/٤٩١).

٢ - لأنَّ (الصُّفْر) هو النحاس الأصفر.

[المعجم الوسيط (١/ ٥١٦)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المطلب الثاني: مولده ونشأته

أولاً: مولده:

ولد الإمام ابن الجوزي في محلة "درب حبيب" الواقعة في بغداد.

وقد اختلف في تاريخ مولده:

فقيل: سنة (٥٠٨هـ)، وقيل سنة (٥٠٩هـ)، وقيل سنة (٥١٠هـ)، والأرجح أنه ولد بعد (٥١٠هـ)، إما في (٥١١هـ= ١١١٧م)، أو (٥١٢هـ= ١١١٨م)،كما يظهر ذلك في بعض مؤلفاته في الوعظ، حيث يقول: إنه بدأ التصنيف سنة (٥٢٨هـ)، وله من العمر (١٧ سنة)، ولما نقل عنه أيضاً في ذيل تاريخ بغداد لابن النجار "أنه كان يقول: لا أحقق مولدي، غير أنه مات والدي في سنة ٥١٤هـ، وقالت الوالدة: كان لك من العمر ثلاث سنين" [(١)].

وقال ابن القطيعي[(٢)]:"سألته عن مولده، فقال: ما أحقق الوقت، إلا أني أعلم أني احتلمت في سنة وفاة شيخنا ابن الزغواني[(٣)]، وكان توفي في سنة (٥٢٧هـ)"[(٤)].

ثانياً: نشأته:

توفي والده علي بن محمد وله من العمر ثلاث سنين، ولكن ذلك لم يمنع من نشأته نشأة صالحة، فقد أبدله الله تعالى بعمة مخلصة تعطيه كل عطفها وعنايتها، وتسهر على خدمته وتعليمه، فهي التي حملته إلى مسجد أبي الفضل ابن ناصر[(٥)]، فتلقى منه الرعاية

---

(١) وفيات الأعيان (١٤٢/٣).

(١) أبو الحسن القطيعي محمد بن أحمد بن عمر بن الحسين ابن خلف القطيعي أبو الحسن ابن أبي العباس من أهل القطيعة بباب الأزج.

[الوافي بالوفيات (٩٢/٢)].

(٢) هذا الاختلاف في تاريخ ميلاده حكاه الذين ترجموا له، منهم تلميذه الحافظ المنذري في التكملة لوفيات النقلة (٢٩١/٢-٢٩٢).

(٢) علي بن عبيد الله بن نصر البغدادي شيخ الحنابلة، أبي الحسن الزاغوني الفقيه الحنبلي، له تصانيف فيها أشياء من بحوث المعتزلة بدعوه بها لكونه نصرها

[لسان الميزان (٤٢٤/٤)، والعبر في خبر من غبر (٧٢/٤)].

(٢) أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي بن عمر البغدادي الحافظ الأديب المعروف بالسلامي، كان حافظ بغداد في زمانه، وكان له حظ وافر من الأدب.

[وفيات الأعيان (٢٩٣/٤)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

التامة، والتربية الحسنة، حتى أسمعه الحديث، وكان أول سماعاته في سنة (٥١٦هـ)، فحفظ القرآن الكريم، وقرأه على جماعة من أئمة القراء، وقرأ بالروايات في كبره بواسط على ابن الباقلاني.

وعلى الرغم من فراق والده في طفولته فقد ساعده في توجهه إلى طلب العلم وتفرغه لذلك ثروة أبيه الموسر، فقد ترك له من الأموال الشيء الكثير، ولذا نراه -رحمه الله- يكثر من الكلام عن نفسه في أكثر من كتاب، ويبين أنه نشأ في النعيم، فيقول في صيد الخاطر: "فمن ألف الترف فينبغي أن يتلطف بنفسه إذا أمكنه، وقد عرفت هذا من نفسي، فإني ربيت في ترف، فلما ابتدأت في التقلل وهجر المشتهى أثر معي مرضاً قطعني عن كثير من التعبد، حتى أني قرأت في أيام كل يوم خمسة أجزاء من القرآن، فتناولت يوماً ما لا يصلح فلم أقدر في ذلك اليوم على قراءتها، فقلت: إن لقمة تؤثر قراءة خمسة أجزاء بكل حرف عشر حسنات، إن تناوله لطاعة عظيمة، وإن مطعماً يؤذي البدن فيفوته فعل خير ينبغي أن يهجر، فالعاقل يعطي بدنه من الغذاء ما يوافقه"(١).

وقد كان شيخه أبو الفضل ابن ناصر شديد الاعتناء به، وهو الذي سماه عبد الرحمن، وكان لا يعرف إلا بالكنية، وقد قال هو عن ذلك: "سماني وأخواي شيخنا ابن ناصر: عبد الله وعبد الرحمن وعبد الرزاق، وإنما كنا نعرف بالكنى"(٢).

وقال ابن الجوزي حاكياً عن نشأته العلمية في أول مشيخته:"حملني شيخنا ابن ناصر إلى الأشياخِ في الصِّغَرِ، وأسمعني العَوَالي، وأثبت سماعاتي كلها بخطه، وأخذ لي إجازات منهم، فلما فهمت الطلب كنت ألازم من الشيوخ أعلمهم، وأوثر من أرباب النقل أفهمهم، فكانت همتي تجويد العُدد لا تكثير العَدد، ولما رأيت من أصحابي من يؤثر الاطلاع على كبار

(١) صيد الخاطر، لابن الجوزي، دار ابن خزيمة، الرياض، الطبعة الأولى١٩٩٧م، تحقيق وتعليق عامر بن علي ياسين (ص٣٤٦).

(٢) ذيل طبقات الحنابلة، لأبي الحسن محمد بن أبي يعلى، دار المعرفة، بيروت، تحقيق محمد حامد الفقي (٣٨٥/١).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

مشايخي ذكرت عن كل واحد منهم حديثاً"[1]، ثم ذكر في هذه المشيخة سبعة وثمانين شيخاً.

فلما بلغ ابن الجوزي رشده شعر بنفسه وبال الترف عليه في طلب العلم، فقنع باليسير، واستسهل الصعاب متحملاً كل الشدائد والمحن، فهمته في طلب العلم أنسته كل الترف، فانكب على طلب العلم، يقول عن نفسه:" ولقد كنت في مرحلة طلبي العلم ألقى من الشدائد ما هو عندي أحلى من العسل، لأجل ما أطلب وأرجو ... كنت في زمان الصبا آخذ معي أرغفة يابسة فأخرج في طلب الحديث، وأقعد على نهر عيسى، فلا أقدر على أكلها إلا عند الماء، فكلما أكلت لقمة شربت عليها شربة، وعين همتي لا ترى إلا لذة تحصيل العلم"[2].

وقد عاش ابن الجوزي منذ طفولته ورعاً تقياً زاهداً، لا يحب مخالطة الناس خوفاً من ضياع الوقت، ووقوع الهفوات، فصان بذلك نفسه وروحه ووقته، يقول الإمام ابن كثير:" وكان -وهو صبي- ديناً منجمعاً على نفسه لا يخالط أحداً، ولا يأكل ما فيه شبهة، ولا يخرج من بيته إلا للجمعة، وكان لا يلعب مع الصبيان"[3].

وفي طلبه للعلم سمع الكتب الكبار كالمسند وجامع الترمذي، وتاريخ الخطيب، وصحيح البخاري على شيخه أبي الوقت، وقرأ الفقه والخلاف والجدل والأصول على أبي بكر الدينوري والقاضي أبي يعلى الصغير، وقرأ الأدب على أبي منصور الجواليقي، وتتبع مشايخ الحديث وحمل عنهم، ولما توفي شيخه ابن الزغواني سنة (٥٢٧هـ)، طلب حلقة شيخه فلم يعطها لصغر سنة، وأخذها أبو علي الراذاني، فحضر ابن الجوزي بين يدي الوزير، وأورد فصلاً من المواعظ؛ فأذن له في الجلوس في جامع المنصور، قال ابن الجوزي:" فتكلمت فيه فحضر مجلسي أول يوم جماعة من أصحابنا الكبار من الفقهاء ... ثم تكلمت في مسجد معروف، وفي باب البصرة، وبنهر المعسلي، فاتصلت المجالس، وقوي الزحام، وقوي اشتغالي

---

(٣) مشيخة ابن الجوزي، لجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي، دار الغرب الإسلامي، بيروت الطبعة الثالثة، ٢٠٠٦م، تقديم وتحقيق محمد محفوظ (ص١).

(٤) الرحلة في طلب الحديث، لأبي بكر البغدادي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٣٩٥هـ، الطبعة الأولى، تحقيق نور الدين عتر (٢١٩/١).

٣ - البداية والنهاية (٢٩/١٣).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

بفنون العلوم"، ومن ذلك الوقت اشتهر أمر الإمام ابن الجوزي، وأخذ في التصنيف والجمع والقراءة.

وقال في صيد الخاطر متحدثاً عن علو همته في طلب العلم بأنه قد قرأ أكثر من عشرين ألف مجلد، وأنه ما زال مستمراً في القراءة.

ولعل ما سبق من الحديث لا يجمع شتاته مثل ابن الجوزي؛ إذ أن أفضل من يصف نفسه صاحبها، حيث يقول ابن الجوزي في كتابه لفتة الكبد في نصيحة الولد: "ولقد وفق لي شيخنا أبي الفضل بن ناصر رحمه الله، وكان يحملني إلى الشيوخ، فأسمعني المسند وغيره من الكتب الكبار، وأنا لا أعلم ما يراد مني، وضبط لي مسموعاتي إلى أن بلغت، فناولني ثبتها، ولازمته إلى أن توفي رحمه الله، فنلت به معرفة الحديث والنقل، ولقد كان الصبيان ينزلون إلى دجلة ويتفرجون على الجسر وأنا في زمن الصغر آخذ جزءاً وأقعد حُجَزة من الناس إلى جانب الرَّقة فأتشاغل بالعلم.

ثم ألهمت الزهد فسردت الصوم وتشاغلت بالتقلل من الطعام، وألزمت نفسي الصبر فاستمرت وشمرت ولازمت وعالجت السهر، ولم أقنع بفن من العلوم، بل كنت أسمع الفقه والوعظ والحديث، وأتبع الزهاد، ثم قرأت اللغة، ولم أترك أحداً ممن يروي ويعظ، ولا غريباً يقدم إلا وأحضره، وأتخير الفضائل، وكنت إذا عرض لي أمران أقدم في أغلب الأحوال حق الحق.

فأحسن الله تدبيري وتربيتي وأجراني على ما هو الأصلح لي، ودفع عني الأعداء والحساد ومن يكيدني، وهيأ لي أسباب العلم، وبعث إليَّ الكتب من حيث لا أحتسب، ورزقني الفهم وسرعة الحفظ والخط وجودة التصنيف، ولم يعوزني شيئاً من الدنيا، بل ساق إليَّ من الرزق مقدار الكفاية وأزيد، ووضع لي القبول في قلوب الخلق فوق الحد، وأوقع كلامي في نفوسهم فلا يرتابون بصحته، وقد أسلم على يدي نحو مائتين من أهل الذمة، ولقد تاب في مجالسي أكثر من مائة ألف، وقد قطعت أكثر من عشرين ألف سالف مما يتعاناه الجهال.

ولقد كنت أدور على المشايخ لسماع الحديث فينقطع نفسي من العدو لئلا أسبق، وكنت أصبح وليس لي مأكل، وأمسي وليس لي مأكل، ما أذلني الله لمخلوق قط، ولكنه ساق رزقي لصيانة عرضي.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولو شرحت أحوالي لطال الشرح، وها أنا قد ترى ما آلت حالي إليه، وأنا أجمعه في كلمة واحدة هي قوله تعالى: ((وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ))[البقرة:٢٨٢]" [١].

وقد عظمت شهرته في عهد الوزير ابن هبيرة[٢]، وكان يتكلم في بيته في كل جمعة، وقد حضر مجلس وعظه الخلفاء والوزراء والملوك والأمراء والعلماء والفقراء، ومن سائر صنوف بني آدم، وأقل ما كان يجتمع في مجلس وعظه عشرة آلاف، وربما اجتمع فيه مائة ألف أو يزيدون[٣]، وربما تكلم من خاطره على البديهة نظماً ونثراً.

وقد كان فيه بهاء وترفع في نفسه وإعجاب وسمو بنفسه، وذلك ظاهر في كلامه في نثره ونظمه؛ فمن ذلك قوله:

ما زلت أدرك ما غلا بل ما علا ... وأكابد النهج العسير الأطولا
تجري بي الآمال في حلباته ... جري السعيد مدى ما أملا
أفضى بي التوفيق فيه إلى الذي ... أعيا سواي توصلاً وتغلغلا
لو كان هذا العلم شخصاً ناطقاً ... وسألته هل زار مثلي؟ قال: لا

---

١ – لفتة الكبد في نصيحة الولد، المكتبة الشاملة (رقمي) (ص٤).

٢ – يحيى بن محمد بن هبيرة أبو المظفر الوزير للخلافة، عون الدين، قرأ القرآن وسمع الحديث، وكانت له معرفة جيدة بالنحو واللغة والعروض، وتفقه على مذهب الإمام أحمد، وصنف كتباً جيدة مفيدة من ذلك الإفصاح.
[البداية والنهاية (١٢/٢٥٠)، ووفيات الأعيان (٦/٢٣٠)].

٣–ولَدَيَّ شَكٌّ في دِقَّةِ هذه الأرقامِ، وإلا فكيفَ يمكن إحصاءُ مائة ألفٍ في مثلِ تلكَ الأزمانِ المتقدِّمةِ؟!

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المطلب الثالث: شيوخه وتلاميذه

أولاً: شيوخه:

ألف الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى في مشيخته كتاباً خاصاً، ذكر فيه ستة وثمانين شيخاً وذيله بثلاث نسوة ممن أخذ العلم على أيديهم، وقد كان لما شهدته بغداد من حركة علمية قوية أثرها على الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى؛ فمع أنه لم يرحل لطلب الحديث، إلا أن حملة الحديث وأئمته قد طافوا البلاد ونزلوا بغداد أو استقر بهم المقام فيها حيناً من الزمن، فانتقى مشايخه انتقاء، واصطفى له طائفة من الخلص، وتتلمذ على ثلة هم من خيرة أعلام عصره، ويذكر اهتمامه في اختيار أبرع وأفهم المشايخ في بداية كتابه السالف الذكر بقوله:" فلما فهمت الطلب كنت ألازم من الشيوخ أعلمهم، وأوثر من أرباب النقل أفهمهم، فكانت همتي تجويد العُدد لا تكثير العَدد، ولما رأيت من أصحابي من يؤثر الاطلاع على كبار مشايخي ذكرت عن كل واحد منهم حديثاً "[1].

أولاً: مشايخه[2]:

١- أبو بكر محمد بن عبد الباقي بن محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن الربيع بن ثابت، وتنتهي نسبته إلى كعب بن مالك الأنصاري أحد الثلاثة الذين خلفوا، يقول المؤلف: إنه قرأ عليه، وكان ثقة فهماً حجة متفنناً في علوم كثيرة، منفرداً في علم الفرائض، وقع في أيدي الروم أسيراً فأجبروه على أن ينطق كلمة الكفر فلم يفعل، توفي رحمه الله سنة (٥٣٥هـ).

٢- أبو بكر محمد بن الحسن بن علي بن إبراهيم المعروف بالمزرعي، قال ابن الجوزي: إنه سمع منه وكان ثقة ثبتاً عالماً، حسن العقيدة، وسمع الحديث الكثير من ابن المهتدي، والصيريفيني وغيرهما، توفي رحمه الله سنة (٥٢٧هـ).

---

١ - مشيخة ابن الجوزي (ص١).

٢ - انتقينا بعض مشائخه ممن اشتهر بالأخذ عنهم أو ممن هم أعلام في الأمة، وفضلنا عدم ذكر من ذكرناهم في أصل الترجمة تحاشياً للتكرار، ومن أراد الزيادة فيمكنه الرجوع إلى كتاب مشيخته.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣- أبو الحسن علي بن عبد الواحد الدينوري، يقول المؤلف: إنه سمع منه الفقه والحديث، والجدل، والخلاف، والأصول، وهو من أقدم شيوخه، وكان يسكن باب البصرة من غربي بغداد، وتوفي في جمادي الآخرة سنة (٥٢١هـ).

٤- أبو الفتح عبد الملك بن أبي القاسم الكروخي، قال ابن الجوزي: إنه سمع منه بقراءة شيخه الأول أبي الفضل بن ناصر عليه، وكان عبد الملك صالحاً صدوقاً، سمع جماعة كثيرة، وخرج إلى مكة فجاور بها، وتوفي في ذي الحجة بعد رحيل الحجاج بثلاثة أيام سنة (٥٤٨هـ).

٥- أبو سعد أحمد بن محمد بن الحسن بن علي البغدادي، يقول ابن الجوزي: إنه سمع منه بقراءة أبي الفضل بن ناصر عليه، وكان خيراً ثقة، وأملى بمكة والمدينة، وكان على طريقة السلف صحيح العقيدة، حلو الشمائل، مطرح التكلف، ولد بأصبهان ونشأ بها، وتوفي بنهاوند سنة (٥٤٠هـ).

٦- أبو الفضل محمد بن ناصر بن محمد بن علي بن عمر وهو خاله، كان حافظًا ضابطًا متقنًا ثقة، وفقيهاً ولغوياً بارعاً، وهو أول معلم له، قال الشيخ ابن الجوزي: "كان شيخنا ثقة حافظاً ضابطاً من أهل السنة، لا مغمز فيه، تولى تسميعي، سمعت بقراءته مسند أحمد والكتب الكبار، وعنه أخذت علم الحديث، وكان كثير الذكر، سريع الدمعة"، توفي رحمه الله سنة (٥٥٠هـ).

٧- أبو منصور موهوب بن أحمد بن الخضر الجواليقي، وهو اللغوي المحدث والأديب المعروف، وقد أخذ عنه اللغة والأدب، توفي رحمه الله سنة (٥٤٠ هـ).

٨- أبو القاسم هبة الله بن أحمد بن عمر الحريري المعروف بابن الطبري، وقد أخذ عنه الحديث، وعمّر حتى جاوز التسعين ممتَّعاً بسمعه وبصره وقوته، ويقرأ الناس عليه القرآن والحديث ولا يَمَلُّ، إلى أن توفي رحمه لله سنة (٥٣١هـ).

٩- أبو منصور محمد بن عبد الملك بن الحسين بن إبراهيم بن خيرون، كان ثقة، وكان سماعه صحيحاً، قال ابن الجوزي: سمعت عليه الكثير وقرأت عليه، وهو آخر من روى عن الجوهري بالإجازة، توفي رحمه الله سنة (٥٣٩هـ).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد سمع من جماعة غيرهم، لكنه اقتصر على أكابر الشيوخ، فمنهم ابن الحصين، والقاضي أبو بكر الأنصاري، وعلى أبو بكر المزرعي، وعلي بن عبد الواحد الدينوري، وأبو السعادات المتوكلي، وأبو غالب بن البنا، وأخوه يحيى، وأبو عبد اللّه البارع، وأبو الحسن علي بن أحمد الموحد، وأبو غالب الماوردي، والحسن بن الزاغوني، وأبو القاسم السمرقندي، وعبد الوهاب الأنماطي، وأبو القاسم عبد اللّه بن محمد الأصبهاني، وأبو سعد الزوزني، وأبو سعد البغدادي، ويحيى بن الطراح، وإسماعيل بن أبي صالح المؤذن، وأبو القاسم علي بن معلى العلوي الهروي الواعظ، وأبو منصور القزاز، وعبد الجبار بن إبراهيم بن عبد الوهاب بن مندة.

ثانياً: تلاميذه:

لما اختار ابن الجوزي ثلة من خيرة أساطين علماء عصره، اختاره طلابه شيخاً من كبار علماء عصره، فقد أخذ العلم والحكمة على يده نخبة من الأفذاذ حتى من كبار عصره؛ فبرزوا بعده مقتدين بخطواته في التأليف والنصح والإخلاص، منهم:

١- الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن علي بن سرور، ولد في أرض نابلس سنة (٥٤١هـ)، وسمع الحديث والعلوم من دمشق والموصل وهمدان، والإسكندرية، وكان حافظاً تقياً ورعاً، وسمع من ابن الجوزي ببغداد، وألف كتباً عديدة، قال يوسف بن خليل: كان ثقة ثبتاً ديناً مأموناً حسن التصنيف دائم الصيام، توفي بمصر سنة (٦٠٠هـ).

٢- يوسف بن قزغلي أو قزأوغلي[1] ابن عبد الله، أبو المظفر الواعظ، سبط الإمام ابن الجوزي، روى عن جده ببغداد، وسمع أبا الفرج بن كليب وغيره، وسمع بالموصل ودمشق، وحدث بها وبمصر وأعطي القبول، وصنف الكتب العديدة، منها كتاب مرآة الزمان في التاريخ، وشرح الجامع الكبير، واللوامع في أحاديث المختصر، وغيرها، أخذ العلم من ابن الجوزي في بغداد، وتوفي ليلة الثلاثاء الحادي عشر من ذي الحجة سنة (٦٥٤هـ).

---

(١) قزأوغلي، بكسر القاف وسكون الزاي، ثم همزة مضمومة وغين ساكنة ولام مكسورة وياء: لفظ تركي، ترجمته الحرفية "ابن البنت"، أي: "السبط"، وفي الكتاب من يحذف الألف والواو تخفيفاً، فيكتبها "قزغلي" بالقاف المكسورة وضم الزاي، والنص على هذا في تاريخ علماء بغداد "منتخب المختار"(ص٢٣٦) قال: "والصواب ضم الزاي وسكون الغين المعجمة". ولا قيمة لما ذهب إليه أحد المعاصرين، من أنه "الفرغلي" اعتماداً على خطأ مطبعي في كتاب ابن خلكان.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

٣- أحمد بن عبد الدائم بن نعمة الكاتب المحدث، ولد سنة (٥٧٥هـ) في نابلس، ودخل بغداد، وسمع بها من ابن الجوزي وغيره، وسمع بدمشق وحران، وكان حسن الخلق والخلق، ديناً متواضعاً، وحدث بالكثير بضعاً وخمسين سنة، وكتب ما لا يوصف كثرة من الكتب الكبار، متأثراً بشيخه ابن الجوزي حتى صار شيخاً للأئمة الكبار، والحفاظ والمحدثين، والفقهاء كالشيخ محي الدين النووي، والشيخ شمس الدين بن عمر، والشيخ تقي الدين ابن دقيق العيد، والشيخ تقي الدين ابن تيمية، وأمثالهم رحمهم الله جميعاً، توفي سنة (٦٦٨هـ).

وقرأ أيضاً العلم على الشيخ أبي الفرج ابن الجوزي جماعة، منهم: طلحة العلثي، وأبو عبد الله ابن تيمية خطيب حران، وذكر في أول تفسيره أنه قرأ عليه كتابه "زاد المسير" في التفسير قراءة بحث ومراجعة، وسمع الحديث وغيره من تصانيفه منه خلق لا يحصون كثرة من الأئمة والحفاظ والفقهاء وغيرهم، وروى عنه خلق، منهم ولده الصاحب محيي الدين، والشيخ موفق الدين، وابن الدبيثي، وابن القطيعي، وابن النجار، وابن خليل، والنجيب عبد اللطيف الحراني، وهو خاتمة أصحابه بالسماع.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المطلب الرابع: عقيدته ومذهبه الفقهي

أولاً: عقيدته:

يعتبر الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى من علماء الحنابلة الكبار، وقد اشتهر عن الحنابلة نصرتهم لعقيدة السلف، ولكن لما خرج ابن الجوزي عن طريقهم في بعض المسائل احتجّ بعض المتكلمين على الحنابلة بما يقول، وذلك لتأثره بالمتكلّمين في مسائل الأسماء والصفات، فتأرجح في مسائل الصفات بين النفي والإثبات؛ فهو أحياناً يثبت، وأحياناً ينفي، وربما ناقش بعض المبتدعة في النفي، وربما ناقش بعض أهل السنة في الإثبات، أو احتج بما في الصحيحين من أحاديث وأولها، ونسب ذلك لعقيدة السلف.

يقول الإمام ابن رجب رحمه الله تعالى[1] في ذيل طبقات الحنابلة:" اشتد إنكار العلماء عليه في ذلك، وكان مضطرباً في قضية التأويل رغم سعة اطلاعه على الأحاديث في هذا الباب؛ فلم يكن خبيراً بحل شبه المتكلمين"، ويقول:" كان أبو الفرج تابعاً لشيخه أبي الوفاء ابن عقيل في ذلك، وكان ابن عقيل بارعاً في علم الكلام، ولكنه قليل الخبرة في الأحاديث والآثار؛ لذا نراه مضطرباً في هذا الباب"[2].

ويمكن لمن أراد أن يبدأ في دراسة عقيدة إمام جليل كابن الجوزي ملأ ذكره السمع والبصر، وصنف في كل فن من فنون العلم، وتشعب فيها.. يمكن له أن ينطلق في دراسة عقيدته بما وصفه به شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى[3] من ذكره له بالتناقض في باب الأسماء والصفات، فقال عنه بأنه:" لم يثبت على قدم النفي، ولا على قدم الإثبات"[4]، فهذه الجملة على صغرها إلا أنها قد صدرت من إمام ثقة بصير ناقد محقق، له ثقله عند أهل

---

(١) الشيخ المحدث الحافظ زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب السلامي البغدادي ثم الدمشقي، أبو الفرج.

[الدرر الكامنة لابن حجر (٣/١٠٨)، والأعلام للزركلي (٣/٢٩٥)].

(١) انظر: ذيل طبقات الحنابلة (١/٣٩٩).

(١) أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم الخضر النميري الحراني الدمشقي الحنبلي، أبو العباس، تقي الدين ابن تيمية: الإمام، شيخ الإسلام.

[تذكرة الحفاظ (١١٧٥)، والأعلام للزركلي (١/١٤٤)].

(١) مجموع فتاوى ابن تيمية، مكتبة ابن تيمية، الطبعة الثانية، جمع عبد الرحمن بن حسن (٤/١٦٩).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

السنة والجماعة؛ إذ يعتبر خاتمة المحققين لعقائدهم، ورافع لواء دفع الشبهات، وداحض فلول المبتدعة، وكل من أتى بعده إنما هم عالة عليه. هذه الجملة أيضاً تختصر الزمن وتقرر عقيدة ابن الجوزي في باب جليل من أبواب العقائد.

ومع هذا فلا يغض الطرف عن حق هذا الإمام الذي وقف كالطود الأشم يصارع الروافض في عصره، حتى وقعت له تلك المحنة وهو شيخ مسن قد جاوز الثمانين من عمره، ورغم أن المحنة التي تعرض لها الإمام ابن الجوزي كانت في آخر عمره، إلا أن أسباب تلك المحنة كانت قديمة وبعيدة الجذور، وذلك لأمرين:

أولهما: متعلق بالأجواء السائدة في بغداد خلال القرن السادس الهجري، وأثر وجود الجدل الديني والبويهي الشيعي.

وثانيهما: متعلق بطبيعة شخصية ابن الجوزي، والتي أورثته خصومة وعداوة الكثيرين.

يقول ابن رجب رحمه الله تعالى في ذيل طبقات الحنابلة عن تلك المحنة: "وقد نالته محنة في آخر عمره رحمه الله. وحديثها يطول، وملخصها:

أن الوزير ابن يونس الحنبلي -الذي قدمنا ترجمته- كان في ولايته قد عقد مجلساً للركن عبد السلام بن عبد الوهاب بن عبد القادر الجيلي، وأحرقت كتبه. وكان فيها من الزندقة وعبادة النجوم ورأي الأوائل[1] شيء كثير، وذلك بمحضر من ابن الجوزي وغيره من العلماء، وانتزع الوزير منه مدرسة جده، وسلمها إلى ابن الجوزي.

فلما ولي الوزارة ابن القصاب -وكان رافضياً خبيثاً- سعى في القبض على ابن يونس، وتتبع أصحابه، فقال له الركن: أين أنت عن ابن الجوزي فإنه ناصبي ومن أولاد أبي بكر[2]، فهو من أكبر أصحاب ابن يونس، وأعطاه مدرسة جدي، وأحرقت كتبي بمشورته. فكتب ابن القصاب إلى الخليفة الناصر -وكان الناصر له ميل إلى الشيعة ولم يكن له ميل إلى الشيخ أبي الفرج-بل قد قيل: إنه كان يقصد أذاه، وقيل: إن الشيخ ربما كان يُعَرِّضُ في مجالسه بذم

١- يُقْصَدُ بهم الفَلاسفة القُدامى؛ كسقراط، وأفلاطون، وأرسطو ... إلخ.

(١) لأن نسب ابن الجوزي ينتهي إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه، كما تقدم في ذكر نسبه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الناصر، فأمر بتسليمه إلى الركن عبد السلام، فجاء إلى دار الشيخ وشتمه، وأغلظ عليه وختم على كتبه وداره[1]، وشتت عياله.

فلما كان في أول الليل حمل في سفينة وليس معه إلا عدوه الركن، وعلى الشيخ غلالة[2] بلا سراويل، وعلى رأسه تخفيفة؛ فأحضر إلى واسط، وكان ناظرها شيعياً. فقال له الركن: مكني من عدوي لأرميه في المطمورة، فقال: يا زنديق! أرميه بقولك، هات خط الخليفة، والله لو كان من أهل مذهبي[3] لبذلت روحي ومالي في خدمته، فعاد الركن إلى بغداد.

قال ابن القادسي: لما حضروا واسط جمع الناس، وادعى ابن عبد القادر على الشيخ أنه تصرف في وقف المدرسة، واقتطع من مالها كذا وكذا، وكذب فيما ادعاه، وأنكر الشيخ، وصدق وبر، أفرد للشيخ دار بدرب الديوان، وأفرد له من يخدمه، وبقي الشيخ محبوساً بواسط في دار بدرب الديوان، وعلى بابها بواب، وكان بعض الناس يدخلون عليه، ويستمعون منه، ويملي عليهم، وكان يرسل أشعاراً كثيرة إلى بغداد، وأقام بها خمس سنين يخدم نفسه بنفسه، ويغسل ثوبه ويطبخ، ويستقي الماء من البئر، ولا يتمكن من الخروج إلى الحمام[4] ولا غيره وقد قارب الثمانين. ويقال: إنه بقي خمسة أيام في السفينة حتى وصل إلى واسط لم يأكل فيها طعاماً.

وذكر عنه أنه قال: قرأت بواسط مدة مقامي بها كل يوم ختمة، ما قرأت فيها سورة يوسف من حزني على ولدي يوسف[5].

١- أي مُنِعَ من التَّصرفِ فيها، ثم تُصَادرُ بعد ذلكَ؛ فإنَّا لله وإنَّا إليه راجعون!

٢ - هي الملابس الخفيفة التي تقارب ما يسمى الآن بالملابس الداخلية.

٣ - أي شيعي رافضي جعفري اثنا عشري.

(1) المراد به الحمامات التي كانت تستخدم للاغتسال لا الكنف التي كانت توجد في بيوت الشام منذ عهود فتح الصحابة لها.

(٥) العجيب أن الذي تآمر مع الركن عبد السلام في مؤامرته ضد ابن الجوزي هو ولده الكبير أبو القاسم علي، وكان ماجنًا فاسقًا نديم الركن في مجالس الخمر والفجور، وكان عاقًا لأبيه، وقد هجره أبوه وإخوته لسوء أخلاقه وأفعاله.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وبقي على ذلك من سنة تسعين إلى سنة خمس وتسعين، فأفرج عنه، وقدم إلى بغداد وخرج خلق كثير يوم دخوله لتلقيه ... وحضر أرباب المدارس والصوفية ومشايخ الربط، وامتلأت البرية حتى ما كان يصل صوت الشيخ إلى آخرهم.

وكان السبب في الإفراج عن الشيخ: أن ولده محيي الدين يوسف ترعرع وأنجب، وقرأ الوعظ ووعظ، وتوصل وساعدته أم الخليفة، وكانت تتعصب للشيخ أبي الفرج فشفعت فيه عند ابنها الناصر، حتى أمر بإعادة الشيخ، فعاد إلى بغداد، وخلع عليه، وجلس عند تربة أم الخليفة للوعظ، وأنشد:

شقينا بالنوى زمناً فلما تلاقينا كأنا ما شقينا
سخطنا عندما جنت الليالي فما زالت بنا حتى رضينا
سعدنا بالوصال وكم شقينا بكاسات الصدود وكم فَنِينا
فمن لم يحي بعد الموت يوماً فإنا بعدما متنا حيينا

ولم يزل الشيخ على عادته الأولى في الوعظ، ونشر العلم وكتابته إلى أن مات"اهـ.

أيضاً تدل أمور أخرى على كثرة تذبذب الشيخ في عقيدته، حتى أن بعض الأشاعرة ادعى أنه منهم، وهذا " غير ثابت، وتدفعه طائفة من الشواهد التاريخية:

أولها: أن ابن الجوزي كان مضطرباً في مسألة الصفات، فيثبتها مرة و ينفيها مرة أخرى، فقد أوّل صفة الوجه، لكنه أثبتها في مواضع أخرى من كتبه.

وثانيها: أن علماء الحنابلة ببغداد أنكروا على ابن الجوزي نفيه لبعض الصفات، وميله للتأويل، وتأثره بالأشاعرة، وأرسلوا إليه خطاباً طويلاً مشحوناً بالتحذير والنصح والتهديد والتخويف، وقالوا له فيه: إنه أساء لمذهب الإمام أحمد الذي ينتسب إليه؛ فلو كان قد ترك مذهبه في الأصول والتحق بالأشاعرة، ما جاء خطابهم إليه بذلك الأسلوب، ولصرّحوا فيه بأنه ترك مذهبهم، وربما ما أرسلوه إليه أصلاً.

والشاهد الثالث: أن لابن الجوزي أقوالاً ذم فيها أبا الحسن الأشعري وأصحابه، فقال عن الأشعري: إنه جاء بمقالة خبّطت عقائد الناس، وأوجبت الفتن المتصلة[1]، وعرّض

(١) المنتظم (٦/٣٣٢).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بأصحابه ووصفهم بأهل البدع، وأنهم يقولون: (ما في السماء أحد[1]، ولا في المصحف قرآن، ولا في القبر نبي، ثلاث عورات لكم!)[2].

والشاهد الرابع: هو أنه انتقد الأشاعرة في موقفهم من كلام الله تعالى، وشهّر بهم، ورد عليهم، وخالفهم في مفهوم التشبيه، فهو عنده أن يُقال: (بصر الله كبصر الإنسان، ويده كيده) [3]، وعندهم هو إثبات الصفات الخبرية بلا تأويل[4].

فيتبين مما ذكرناه عن ابن الجوزي: أنه كان متذبذباً في مسألة الصفات، مضطرباً في موقفه منها بين الحنبلية والأشعرية، وأن تأثره ببعض أفكار الأشاعرة لم ينقله عن مذهبه إلى مذهبهم، لكنه جلب عليه إنكار علماء الحنابلة، وانتقادهم إياه"[5].

كما أنه " لا توجد علاقة تلازم بين الأشعرية والتصوّف؛ لأن أكثر الحنابلة المتأثرين بالأشعرية هم خُصوم ألداء للصوفية، كأبي الوفاء ابن عقيل، وابن الجوزي[6]، كما أن كبار صوفية الحنابلة لم يكونوا أشاعرة، بل كانوا خصوماً لها، كعبد الله الأنصاري الهروي (ت٤٨١هـ) [7]، و عبد القادر الجيلاني (ت٥٦١هـ)[8]"،[1].

---

١ – يريد به نفي الأشاعرة لعلو الله على خلقه.

(٢) سير أعلام النبلاء (٣٧٦/٢١)، وذيل طبقات الحنابلة (٤٠٣/١).

(٣) صيد الخاطر (ص١٨٢)، و تلبيس إبليس، لابن الجوزي، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٨٥م، الطبعة الأولى، تحقيق السيد الجميلي (ص٢٩).

(٤) تبيين كذب المفتري، لهبة الله بن عساكر، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٤٠٤هـ، الطبعة الثالثة (ص٣١١-٣١٢).

(٥) الأزمة العقدية بين الأشاعرة وأهل الحديث – خلال القرنين:٥-٦ الهجريين- مظاهرها، آثارها، أسبابها، والحلول المقترحة لها، الدكتور خالد كبير علال، الجزائر، دار الإمام مالك، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

(٦) تلبيس إبليس (ص٢٤٠، ٣٧١، ٤١٥)، وما بعدها.

ويكاد أن يكون كتاب ابن الجوزي "تلبيس إبليس" في مهاجمة الصوفية وبيان بدعهم ونقد خرافاتهم؛ راجع على سبيل المثال: (ص٢٤٠، ٣٧١، ٤١٥ وما بعدها).

٧ – شيخ الإسلام الهروي؛ صاحب" منازل السائرين بين إياك نعبد وإياك نستعين"؛ الذي شرحه الإمام ابن القيم(-٧٥١هـ) في كتابه المشهور"مدارج السالكين شرح منازل السائرين"، وهو مطبوعٌ ثلاث مجلدات.

(٨) ذيل طبقات الحنابلة (٥٩/١، ٦٧)، والغنية لطالبي طريق الحق لعبد القادر الجيلاني ، الطبعة الأولى، بيروت، دار صادر، ١٩٩٦م، (ص٧١)، وما بعدها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

يشهد أيضاً لموقف الإمام ابن الجوزي من أهل البدع – وإن كان قد تخبط فيه، ولعل هذا من أسباب ادعاء الأشاعرة أنه منهم – أنه صنف كتابه دفع شبه التشبيه رداً على ثلاثة من أعلام الحنابلة واتهمهم فيه بالتشبيه، وهم: أبو عبد الله بن حامد، والقاضي أبو يعلى الفراء، وأبو الحسن الزاغوني، ولكن رده لم يكن رداً كاملاً صحيحاً في كل جوانبه، فكثيراً ما رد باطلاً بباطل، وخطأ بخطأ؛ لأنه انتقد هؤلاء المبالغين في الإثبات بمنهج التأويل على طريقة الأشاعرة، الذي هو نفي للصفات الخبرية وتعطيل لها، والصواب هو: أنه كان عليه أن يرد عليهم بمنهج الكتاب والسنة والسلف الصالح، في إثبات الصفات الواردة في القرآن والسنة الصحيحة، بلا تشبيه ولا تأويل، ولا تعطيل ولا تكييف(٢).

موقفه من الصوفية:

تأثر الإمام ابن الجوزي في بعض فترات حياته بالصوفية الذين كانوا كغيرهم من أهل البدع يتمتعون بين فينة وأخرى بالنفوذ في الدولة العباسية، ورغم هذا فلم يمنع هذا ابن الجوزي من أن يكون أحد أقدم وأكبر المصادر المهمة في نقد الصوفية، مستفيداً من تراث سابقيه المتناثر بين طيات الكتب، رغم أنه لم يكن متشدداً في نقده لهم، وربما اتسم كلامه فيهم بالإجمال، ولم يتحدث عن الانحرافات العقدية الخطيرة الموجودة لديهم، وكرس أكثر جهوده لنقد بدعهم وأحوالهم(٣).

فقد قال ذاماً التصوف في صيد الخاطر:"... فإنَّ رؤية الدنيا تحثُّ على طلبها ... وكذلك رؤية أرباب الدنيا ودورهم وأحوالهم، خصوصاً لمن له نَفْسٌ تطلب الرفعة، وكذا سماع الأغاني ومخالطة الصوفية الذين لا نظر لهم اليوم إلا في الرزق الحاصل، لو كان من أي مكانٍ قبلوه، ولا يتورعون أن يأخذوا من ظالم، وليس عندهم خوف كما كان أوائلهم، فقد كان

---

(١)الأزمة العقدية بين الأشاعرة وأهل الحديث – خلال القرنين:٥-٦ الهجريين- مظاهرها، آثارها، أسبابها، والحلول المقترحة لها، الدكتور خالد كبير علال، الجزائر، دار الإمام مالك، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.

(٢) المصدر السابق.

(٣) انظر: موقف الإمام ابن الجوزي من الصوفية من خلال كتابه تلبيس إبليس، رسالة ماجستير، علي بن صالح المقوشي، جامعة أم القرى بمكة المكرمة، كلية الدعوة وأصول الدين، قسم العقيدة، ١٤١٤هـ.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

"سري السقطي[1]" يبكي طول الليل، وكان يبالغ في الورع، وهم ليس لهم ورعُ سري، ولا لهم تعبُّدُ الجنيد[2]، وإنما ثمَّ أكل ورقص وبطالة وسماع أغانٍ من المردان، حتى قال بعض من يُعتبَر قوله: حضرت مع رجل كبير يوماً من مشايخ الربط ومغنيهم أمرد، فقام الشيخ ونقَّطه بدينارٍ على خدِّه.

وادعاؤهم أنَّ سماع هذه الأشياء يدعو إلى الآخرة فوق الكذب -أي: فاق منزلة الكذب - وليس العجب منهم، إنما العجب من جُهال يُشفقون عليهم فينفقون عليهم.

ولقد كان جماعة من القدماء يرون أوائل الصوفية يتعبدون ويتورعون فيعجبهم حالهم، وهم معذورون في إعجابهم بهم، وإن كان أكثر القوم في تعبُّدهم على غير الجادة، كما ذكرتُ في كتابي المسمَّى (تلبيس إبليس)".

كما عقد فصولاً أخرى في صيد الخاطر للرد على العزلة العمياء والمتزهدين فيقول:" فكم فوتت العزلة علماً يصلح به أصل الدين، وكم أوقعت في بلية هلك بها الدين، وإنما عزلة العالم عن الشر فحسب ".

ويقول:" وإني أرى أكثر الناس قد حادوا عن الشريعة، وصار كلام المتزهدين كأنه شريعة لهم، فيقال: قال أبو طالب المكي[3]: كان من السلف من يزن قوته بكرية فينقص كل يوم. وهذا شيء ما عرفه رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا أصحابه، وإنما كانوا يأكلون دون الشبع. وما كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه على ما المتزهدون

١- الإمام القدوة شيخ الإسلام أبو الحسن البغدادي، سري بن المغلس السقطي، يكنى أبا الحسن خال أبي القاسم الجنيد وأستاذه.

[صفة الصفوة (٢/٣٧١)، وسير أعلام النبلاء (١٢/١٨٥)].

٢- الإمام القدوة المحدث أبو القاسم الخزاز الجنيد بن محمد الجنيد، أصله من نهاوند ولد ببغداد ونشأ بها، قال في الحلية: "كان كلامه بالنصوص مربوطاً، وبيانه بالأدلة مبسوطاً، فاق أشكاله بالبيان الشافي، واعتناقه للمنهج الكافي، ولزومه للعمل الوافي".

[حلية الأولياء (١٠/٢٥٥)، وسير أعلام النبلاء (٢٠/٢٧٢)].

٣- محمد بن علي بن عطية أبو طالب المكي الواعظ المذكر الزاهد المتعبد الرجل الصالح، كان من أهل الجبل ونشأ في مكة وتزهد وله لسان حلو في التصوف.

[البداية والنهاية (١١/٣١٩)، والمنتظم (٧/١٨٩)، والوافي بالوفيات (١/٤٩٠)، والأعلام للزركلي (٦/٢٧٤)].

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

عليه اليوم؛ فقد كان صلى الله عليه وسلم يضحك ويمزح ويختار المستحسنات، ويسابق عائشة رضي الله عنها، وكان يأكل اللحم ويحب الحلوى ويستعذب الماء وعلى هذا كانت طريقة أصحابه، فأظهر المتزهدون طرائق كأنها ابتداء شريعة، وكلها على غير الجادة".

يخلص الباحثون في عقيدة الإمام ابن الجوزي إلى ما سبق وذكر عن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى من أنه:" لم يستقرّ على عقيدة معينة، ولم يعلم له العلماء عقيدةً معينة، بل له كتب في إثبات صفات الله تعالى، ككتاب (مجالس ابن الجوزي في المتشابه من الآيات القرآنية)، ففي هذا الكتاب يعلن ابن الجوزي إثباته للصفات، خاصة الخبرية، والتي ينفيها المتأخرون من المتكلمين، فقال:" اعلم أنّ الحقّ موصوف باليدين والوجه والعين على الوجه الذي يليق به ...". ثم أخذ يستدل على هذه الصفات من الكتاب والسنة، ويناقش المعتزلة على تأويلهم صفة اليد، ولكن العجيب أنّ ابن الجوزي تجده في كتاب آخر – مثل كتاب (دفع شبه التشبيه) يؤوّل ما سبق أن قرره واستدل عليه من الكتاب والسنة، ويأتي بنفس تأويلات من ردّ عليهم.

ثم تجده في مواضع من كتب أخرى – ككتاب تلبيس إبليس – يقرر التفويض، وأنه هو الواجب ويقول: " وإنما الصواب قراءة الآيات والأحاديث من غير تفسير ولا كلام فيها"[(١)]،[(٢)].

وَهَذَا قد أوقعَ في اللَّبسِ مَنْ يقرأ لابنِ الجوزيِّ، وقد تعلَّق بأقوالِهِ في نفي الصِّفاتِ بعضُ المتكلِّمين، وادَّعوا أَنَّ مذهب الإمام أحمد فيها هو التَّأويل، واستدلُّوا على ذلكَ بتأويلاتِ ابنِ الجوزيِّ وأنَّه يُعتبر من المؤولة"[(٣)].

ويقول ابن تيمية أيضاً:" فيوجد في كلام كثير من المنتسبين إلى أحمد، كأبي الوفاء ابن عقيل وأبي الفرج ابن الجوزي ... ما هو أبعد من قول أحمد والأئمة من قول الأشعري"[(٤)].

---

(١) صيد الخاطر (ص٣١٨)، وتلبيس إبليس (ص١٠٨).

(٢) ابن الجوزي وكتابه دفع شبه التشبيه.

(٣) انظر "موقف ابن الجوزي من الصفات الخبرية"، ضمن رسالة "ابن الجوزي بين التأويل والتفويض" (ص١١٩).

(٤) شرح العقيدة الأصفهانية، لتقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ،تحقيق محمد بن رياض الأحمد (ص ١٠٨).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

"يتبيّن لنا مما سبق: أنّ ابن الجوزي كان بعيداً عن مذهب إمامه في الاعتقاد في الصفات، فإنه كان رحمه الله يعتقد أن طريقته هي التنزيه، مع أنه " لم يثبت على قدم النفي ولا على قدم الإثبات، بل له في الإثبات – نظمًا ونثرًا – ما أثبت به كثيرًا من الصفات التي أنكرها في كتاب دفع شبه التشبيه، فهو في هذا الباب مثل كثير يثبتون تارة وينفون تارة "[1]،[2].

(١) مجموع الفتاوى (١٦٩/٤).

(٢) ابن الجوزي وكتابه دفع شبه التشبيه.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ثانياً: مذهبه الفقهي:

منذ سيطرة الدولة السلجوقية على مقدرات الخلافة العباسية وظهور شخصية الوزير الشهير نظام الملك[1]، أخذ أتباع المذهب الشافعي والعقيدة الأشعرية في الظهور والتحكم في الساحة العلمية لبغداد عاصمة الخلافة، والسيطرة على حلق العلم والمدارس الفقهية، ومحاريب الجوامع، وكانت تلك المكانة من قبل بيد أتباع المذهب الحنبلي والعقيدة السلفية، فلما ظهر الشافعية استطالوا بشدة على الحنابلة، وضيقوا عليهم في المجالس والمدارس، ودخلوا معهم في مناقشات حامية بسبب العقائد، وشنعوا عليهم، وظل الأمر على ما هو عليه فترة طويلة، حتى ظهرت شخصية الإمام ابن الجوزي الذي استطاع أن يستقطب الناس إلى مجالس وعظه، ويبهرهم بفريد عباراته، وفائق تذكيراته، فحضر مجالسه عشرات الآلاف من الكبار والصغار والرجال والنساء، وحضرها الخليفة العباسي نفسه والسلطان السلجوقي، والوزراء والأمراء والكبراء والأغنياء والفقراء، بل كان يحضرها الشيعة الروافض الذين بهرهم رائع بيانه، خاصة وأن ابن الجوزي كان ممن يداري ويهادن ولا يخوض كثيراً في الخلافيات، بالجملة أصبح ابن الجوزي حديث الناس وأشهر علماء بغداد والعراق، وقد أدى ذلك لارتفاع مكانة الحنابلة وإقبال الناس على شيوخ المذهب، وذلك الأمر أغاظ أتباع باقي المذاهب عامة وبخاصة الشافعية.

ويحكي الإمام ابن الجوزي عن نفسه أنه اتخذ المذهب الحنبلي له مذهباً فقهياً، ويعلل سبب اختياره لهذا المذهب كما علل لأمور أخرى كثيرة في حياته، فيقول:" اعلم وفقك الله تعالى أني لما تتبعت مذهب الإمام أحمد رحمه الله تعالى رأيته رجلاً كبير القدر في العلوم، قد بالغ رحمة الله عليه في النظر في علوم الفقه ومذاهب القدماء، حتى لا تأتي مسألة إلا وله فيها نص أو تنبيه، إلا أنه على طريق السلف، فلم يصنف إلا المنقول، فرأيت مذهبه خاليا من

---

(١) الوزير الكبير نظام الملك قوام الدين أبو علي الحسن بن علي بن إسحاق الطوسي، وزير ألب أرسلان، وكان من أولاد الدهاقين واشتغل بالحديث والفقه، ثم اتصل بخدمة علي بن شاذان المعتمد عليه بمدينة بلخ، وكان يكتب له فكان يصادره في كل سنة فهرب منه وقصد داود بن ميكائيل بن سلجوق والد السلطان ألب أرسلان فظهر له منه النصح والمحبة فسلمه إلى ولده ألب أرسلان وقال له: اتخذه والداً ولا تخالفه فيما يشير به.

[سير أعلام النبلاء (٩٤/١٩)، البداية والنهاية (١٤٠/١٢)، وفيات الأعيان (١٢٨/٢)].

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

التصانيف التي كثر جنسها عند الخصوم؛ فصنفت تفاسير مطولة منها المغنى مجلدات وزاد المسير وتذكرة الأريب وغير ذلك"[1].

(١) دفع شبه التشبيه بأكف التنزيه، لابن الجوزي، دار الإمام النووي، الأردن، ١٩٩٢م، الطبعة الثالثة، تحقيق حسن السقاف (ص٩٥).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

المطلب الخامس: ثناء العلماء عليه

عُرف الإمام ابن الجوزي رحمه الله تعالى بالذكاء، وحدة الذهن، وسرعة البديهة والفطنة، وسعة العلم، والثقافة، والهمة العالية، ودفعه طموحه واعتداده بنفسه وعلمه لأن يطلب الجلوس مكان شيخه ابن الزغواني بعد وفاته، وكان وقتها شاباً دون العشرين، فأنكروا عليه ذلك، فاشتغل بالوعظ، وكان فناً رائجاً وبضاعة نافقة في عصره، فتفرد وتفوق على كبار وعاظ بغداد، وبلغت شهرته الآفاق، وتهافت الخلفاء والوزراء والكبراء والأمراء والعلماء والأغنياء والفقراء على حضور مجالسه، وكان يحضر مجالسه عشراتُ الألوف من الناس، وتاب على يديه أكثر من مئة ألف.

وأجمع الذين أرّخوا له على علو كعبه في فنون ومعارف شتى، ولورعه وزهده وعبادته وتفقهه وسعة أفقه أثنى عليه العلماء، ومن المناسب في مثل هذا المقام أن نبدأ صفحات الثناء على الشيخ ابن الجوزي بمن شهده وعاصره، وثنى الركب بين يديه من طلابه الذين سطروا حياة إمامهم بما خطت قلوبهم قبل أيديهم.

يقول أبو عبد الله الدبيثي[1] في تاريخه:" شيخنا جمال الدين صاحب التصانيف في فنون العلوم من التفسير والفقه والحديث والتواريخ وغير ذلك، وإليه انتهت معرفة الحديث وعلومه والوقوف على صحيحه من سقيمه، وكان من أحسن الناس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودهم بياناً، وبورك له في عمره وعلمه"[2].

وقال الموفق عبد اللطيف المقدسي: "كان ابن الجوزي لطيف الصورة، حلو الشمائل، رخيم النغمة، موزون الحركات والنغمات، لذيذ المفاكهة، يحضر مجلسه مائة ألف أو يزيدون، لا يضيع من زمانه شيئاً، يكتب في اليوم أربع كراريس، وله في كل علم مشاركة، لكنه كان في التفسير من الأعيان، وفي الحديث من الحفاظ، وفي التاريخ من المتوسعين، ولديه فقه كاف، وأما السجع الوعظي فله فيه ملكة قوية، وله في الطب كتاب اللقط مجلدان، وكان يراعي

---

(١) محمد ابن أبي المعالي سعيد بن يحيى بن علي بن الحجاج بن محمد الحافظ الكبير المؤرخ أبو عبد الله الدبيثي ثم الواسطي.

[طبقات الشافعية (٢/٨٥)، وتذكرة الحفاظ (٤/١٤١٤)، وطبقات الحفاظ (١/٥٠٠)].

(٢) سير أعلام النبلاء (٢١/٣٧٣).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

حفظ صحته، وتلطيف مزاجه، وما يفيد عقله قوة وذهنه حدة، جُل غذائه الفراريج والمزاوير، ويعتاض عن الفاكهة بالأشربة والمعجونات، ولباسه أفضل لباس الأبيض الناعم الطيب، وله ذهن وقاد، وجواب حاضر، ومجون ومداعبات حلوة"[١].

وقال الإمام ابن قدامة المقدسي[٢]:" ابن الجوزي إمام أهل عصره في الوعظ، وصنف في فنون العلم تصانيف حسنة، وكان صاحب فنون، كان يصنف في الفقه، ويدرس، وكان حافظًا للحديث، إلا أننا لم نرض تصانيفه في السنة[٣]"[٤]، ذلك أن ابن الجوزي قد خالف الحنابلة في كثير من مسائل الاعتقاد، حتى جلب على نفسه الكثير من الانتقادات كما مر في مطلب عقيدة ابن الجوزي.

وقد وصفه ابن الجزري بأنه: "شيخ العراق، وإمام الآفاق"[٥].

وقال عنه ابن جبير: "آية الزمان، وقرة عين الإيمان، رئيس الحنبلية، والمخصوص في العلوم بالرتب العلية، إمام الجماعة، وفارس حلبة هذه الصناعة، والمشهود له بالسبق الكريم في البلاغة والبراعة".

قال عنه ابن كثير:" أحد أفراد العلماء، برز في علوم كثيرة، وانفرد بها عن غيره، وجمع المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمائة مصنف"[٦].

وقال عنه شمس الدين الذهبي: "ما علمت أن أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل"[٧].

---

(١) تاريخ الإسلام (٣٠٣/٤٢).

(٢) عبد الله بن محمد بن قدامة الجماعيلي المقدسي ثم الدمشقي الحنبلي، أبو محمد، موفق الدين، فقيه، من أكابر الحنابلة، هاجر مع أهل بيته وأقاربه وله عشر سنين، وحفظ القرآن ولزم الاشتغال من صغره، وكتب الخط المليح، وكان من بحور العلم وأذكياء العالم.

[سير أعلام النبلاء (١٦٥/٢٢-١٧٣)، الأعلام للزركلي (٦٧/٤)].

٣-قد تأتي (السنة) بمعنى (الاعتقاد)؛ كما في"أصول السنة":لأحمد بن حنبل، و"السنة": لابن أبي عاصم، وغيرها.

(٤) سير أعلام النبلاء (٣٨١/٢١)، وشذرات الذهب (٣٣١/٤).

(٥) غاية النهاية في طبقات القراء (ص١٦٦).

(٦) البداية والنهاية (٢٨/١٣).

(٧) شذرات الذهب (٣٣١/٤).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

وقال:" وكان من أحسن الناس كلاماً، وأتمهم نظاماً، وأعذبهم لساناً، وأجودهم بياناً"(١).

وقال:" كان رأساً في التذكير بلا مدافعة، يقول النظم الرائق والنثر الفائق بديهاً، ويسهب ويعجب، يطرب ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله ... وكان بحراً في التفسير، علامة في السير والتاريخ، موصوفاً بعلم الحديث ومعرفة فنونه، فقيهاً عليماً بالإجماع والاختلاف، جيّد المشاركة في الطبّ "(٢).

وقال في التاريخ الكبير:" لا يوصف ابن الجوزي بالحفظ عندنا باعتبار الصنعة بل باعتبار كثرة اطلاعه وجمعه"(٣).

وأما شيخ الإسلام ابن تيمية مع أنه استدرك وتعقب ابن الجوزي في مواضع من كتبه، إلاّ أنه كان يجله، ووصفه "بالشيخ العالم "(٤).

ولما صنف أبو الفرج كتابه المسمى بـ "التلقيح" وله إذْ ذاك نحو الثلاثين من عمره، عرضه على ابن ناصر، فكتب عليه:" قرأ عليَّ هذا الكتاب جامعه الشيخ الإمام العالم الزاهد أبو الفرج، فوجدته قد أجاد تصنيفه، وأحسن تأليفه، وجمعه ولم يسبق إلى مثل هذا الجمع، فقد طالع كتباً كثيرة، وأخذ أحسن ما فيها من الياقوت واللؤلؤ، فنظمه عقداً زان به التصانيف التي تجمعت من التواريخ، ومعرفة الصحابة وأسمائهم وكناهم وأعمارهم، وأبان عن فهم وعلم غزير، مع اختصار يحض على الحفظ والعمل بالعلم، فنفعه الله بعلمه، ونفع به، وبلغه غاية العمرة لينفع المسلمين، وينصر السنة وأهلها، ويدحض البدع وحزبها"(٥).

---

(١) سير أعلام النبلاء (٣٧٣/٢١).

(٢) المصدر السابق (٣٦٧/٢١).

(٢) طبقات الحفاظ (ص٢١٣).

(٢) الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح، لأحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني، دار العاصمة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، تحقيق د. علي حسن ناصر، د. عبد العزيز إبراهيم العسكر، د. حمدان محمد (٣٦٣/٦).

(٣) ذيل طبقات الحنابلة (٣٧٣/١)، ورحلة ابن جبير (ص٨٢).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

ولقد أعجب بشخصيته وجهده الجبار علماء أجلاء من بعده فمدحوه وأثنوا عليه: يقول ابن خلكان: "إنه كان علامة عصره وإمام وقته في الحديث وفي صناعة الوعظ صنف في فنون كثيرة"(١).

منزلته في الوعظ:

لم يكن جهده محصوراً في القلم والتأليف، إنما كان له شأن عظيم وشهرة كبيرة في الوعظ والخطب والدعوة والإرشاد بين الخواص والعوام.

يقول ابن كثير رحمه الله:" تفرد ابن الجوزي بفن الوعظ الذي لم يسبق إليه ولا يلحق شأوه فيه، وفي طريقته وشكله وفي فصاحته وبلاغته وعذوبته وحلاوة ترصيعه، ونفوذ وعظه، وغوصه في المعاني البديعة، وتقريبه الأشياء الغريبة بما يشاهد من الأمور الحسية بعبارة وجيزة سريعة الفهم والإدراك بحيث يجمع المعاني الكثيرة في الكلمة اليسيرة"(٢).

شجاعته في إظهار الحق:

كان لا يخاف في الله لومة لائم، وكان يحضر في وعظه الرؤساء والخلفاء، وقد التفت مرة إلى ناحية الخليفة المستضيء العباس، وهو يخطب، فقال:" يا أمير المؤمنين! إن تكلمت خفت منك، وإن سكت خفت عليك، وإن قول القائل لك: اتق الله! خير لك من قوله لك: أنتم أهل بيت مغفور لكم"، وأضاف قائلاً:" لقد كان عمر بن الخطاب يقول: إذا بلغني من عامل ظلم فلم أغيره فأنا الظالم"(٣).

وهكذا دافع ابن الجوزي عن الحق بدون أن يخاف في الله لومة لائم، وحارب البدع والمنكرات والتعصب في المذاهب والتقليد الأعمى، وقد كان يعترف بنجاحه في هذا المجال فيقول:" وظهر أقوام يتكلمون بالبدع ويتعصبون في المذاهب، فأعانني الله سبحانه وتعالى عليهم وكانت كلمتنا هي العليا"(٤).

---

(٤) وفيات الأعيان (١٤٠/٣).

(١) البداية والنهاية (٢٨/١٣).

(٢) البداية والنهاية (٢٩/١٣)، وتاريخ الإسلام (٢٦/٤٠)، وسير أعلام النبلاء (٣٧٢/٢١)، والوافي بالوفيات (١١٠/١٨).

(٣) المنتظم (١٩٤/١٠)، وذيل طبقات الحنابلة (٣٦٠/١).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

وقد عقد فصلاً مستقلاً في كتابه صيد الخاطر تحت عنوان "العلماء العاملون" فمدح فيه من يستحق المدح من أقرانه، وذم من يستحق ذلك ثم قال:" فالله الله في العمل بالعلم فإنه الأصل الأكبر، والمسكين كل المسكين من ضاع عمره في علم لم يعمل به، ففاتته لذات الدنيا وخيرات الآخرة فقدم مفلساً مع قوة الحجة عليه"(١).

لقد كان ابن الجوزي علامة عصره في التاريخ والحديث والوعظ والجدل والكلام، وقد جلس للتدريس والوعظ وهو صغير، وقد أوقع الله له في القلوب القبول والهيبة، فكان يحضر مجالسه الخلفاء والوزراء والأمراء والعلماء والأعيان، وكان مع ذيوع صيته وعلو مكانته زاهداً في الدنيا متقللاً منها، وكان يختم القرآن في سبعة أيام، ولا يخرج من بيته إلا إلى المسجد أو المجلس، ويروى عنه أنه كان قليل المزاح.

وكان ابن الجوزي كثير الاطلاع ومشغوفاً بالقراءة فقد حكى عن نفسه أنه طالع عشرين ألف مجلد أو أكثر، وهو ما يزال في الطلب.

نختم هذا المطلب بما ذكره ابن الجوزي عن نفسه في صيد الخاطر فقال:" إني رجل حُبّب إليّ العلم من زمن الطفولة فتشاغلت به، ثم لم يحبب إلي فن واحد بل فنونه كلها، ثم لا تقصر همتي في فن على بعضه، بل أروم استقصاءه، والزمان لا يتسع، والعمر ضيق، والشوق يقوى، والعجز يظهر، فتبقى بعض الحسرات"(٢).

ويقول أيضاً:" سبيل طالب الكمال في طلب العلم الاطلاع على الكتب التي قد تخلفت من المصنفات فليكثر من المطالعة فإنه يرى من علوم القوم وعلو هممهم ما يشحذ خاطره، ويحرك عزيمته للجد، وما يخلو كتاب من فائدة، وأعوذ بالله من سير هؤلاء الذين نعاشرهم، لا ترى فيهم ذا همة عالية فيقتدي به المبتدئ ولا صاحب ورع فيستفيد منه الزاهد، فالله الله، وعليكم بملاحظة سير السلف ومطالعة تصانيفهم وأخبارهم، والاستكثار من مطالعة كتبهم رؤية لهم"(٣).

---

(١) صيد الخاطر (ص١٠٦).

(٢) المصدر السابق (ص٢٢).

(٣) المصدر السابق (ص٣٤١).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

لقد استطاع بهذا الاطلاع الواسع أن يتفوق على كثير من معاصريه بالمشاركة في عديد من العلوم والفنون، فألف في التفسير والوعظ وبز أقرانه فيهما، وألف في الحديث وعلومه والطب وغيرها الشيء الكثير، كما يدل على ذلك آثاره التي خلفها.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المطلب السادس: آثاره

يحسن بنا في هذا المقام أن نقدم الحديث عن آثار هذا الإمام الجليل بقول ابن خلكان بعد أن عَدَّ بعض مؤلفاته:" وبالجملة فكتبه تكاد لا تُعَدُّ، وكتب بخطه شيئاً كثيراً، والناس يغالون في ذلك حتى يقولوا أنه جمعت الكراريس التي كتبها وحسبت مدة عمره، وقسمت الكراريس على المدة فكان ما خص كل يوم تسع كراريس، وهذا شيء عظيم لا يكاد يقبله العقل، ويقال: إنه جمعت بُراية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحُصِّل منها شيء كثير، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يُغسل به بعد موته، ففعل ذلك، فكفت، وفضل منها، وله أشعار كثيرة، وكانت له في مجالس الوعظ أجوبة نادرة"[1].

ترك الإمام ابن الجوزي مصنفات شملت الكثير من العلوم والفنون، زادت على ثلاثمائة مصنف في علوم القرآن الكريم والحديث الشريف والفقه والتفسير والتاريخ والحساب والفلك والطب والوعظ والتذكير والأخلاق والرقائق، وبلغت أوج الشهرة والذيوع.. لقد فارقنا ابن الجوزي جسماً وروحاً، ولكن ثمرات جهده الجبار المرسومة على صفحات التاريخ لم تزل ولا تزال تحيى حياة طيبة، كما قال الشاعر:

الجاهلون ماتوا قبل موتهم والعالمون وإن ماتوا فأحياء

وقد أورد المؤرخون من بعده بكل غرابة وإعجاب مؤلفاته الضخمة في كتبهم، فيقول الإمام ابن تيمية رحمه الله في أجوبته المصرية:" كان الشيخ أبو الفرج مفتياً كثير التصنيف والتأليف، وله مصنفات في أمور كثيرة، حتى عددتها فرأيتها أكثر من ألف مصنف، ورأيت بعد ذلك ما لم أره. وقال: وله من التصانيف في الحديث وفنونه ما لم يصنف مثله، وقد انتفع الناس به، وهو كان من أجود فنونه، وله في الوعظ وفنونه ما لم يصنف مثله.

وقال: ومن أحسن تصانيفه ما يجمعه من أخبار الأولين، مثل المناقب التي صنفها؛ فإنه ثقة كثير الاطلاع على مصنفات الناس، حسن الترتيب والتبويب، قادر على الجمع والكتابة، وكان من أحسن المصنفين في هذه الأبواب تمييزاً؛ فإن كثيراً من المصنفين فيه لا يميز الصدق

---

١ - وفيات الأعيان (١٤١/٣).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

فيه من الكذب، وكان الشيخ أبو الفرج فيه من التمييز ما ليس في غيره، وأبو نعيم له تمييز وخبرة، لكن يذكر في الحلية أحاديث كثيرة موضوعة. فهذه المجموعات التي يجمعها الناس في أخبار المتقدمين من أخبار الزهاد ومناقبهم، وأيام السلف وأحوالهم مصنفات أبي الفرج فيها أسلم من مصنفات هؤلاء، ومصنفات أبي بكر البيهقي أكثر تحريراً لحق ذلك من باطله من مصنفات أبي الفرج، فإن هذين كان لهما معرفة بالفقه والحديث، والبيهقي أعلم بالحديث، وأبو الفرج أكثر علوماً وفنوناً"[1].

ويقول الحافظ الذهبي:" ما علمت أن أحداً من العلماء صنف ما صنف هذا الرجل"[2].

ويصفه ابن كثير بأنه:" أحد أفراد العلماء برز في علوم كثيرة وانفرد بها عن غيره، ومجموع المصنفات الكبار والصغار نحواً من ثلاثمائة مصنف، وكتب بيده نحواً من مائتي مجلد، وله في العلوم كلها اليد الطولى، والمشاركات في جميع أنواعها، من التفسير والحديث والتاريخ والحساب والنجوم والطب والفقه، وغير ذلك من اللغة والنحو، وله من المصنفات في ذلك كله ما يضيق هذا المكان عن تعدادها، وحصر أفرادها، منها كتابه في التفسير المشهور بـ (زاد المسير)، وله تفسير أبسط منه -أي: أوسع- لكنه ليس بمشهور، وله جامع المسانيد استوعب غالب مسند أحمد وصحيحي البخاري ومسلم، وجامع الترمذي، وله كتاب المنتظم في تاريخ الأمم من العرب والعجم في عشرين مجلداً، ولم يزل يؤرخ أخبار العالم حتى صار هو تاريخاً[3].

ما زلت تدأب في التاريخ مجتهداً حتى رأيتك في التاريخ مكتوبا[4]

"وكان يقول: قرأت بواسط مدة مقامي بها كل يوم ختمة ما قرأت فيها سورة يوسف من حزني على ولدي يوسف وشوقي إليه، وكان يكتب إلى بغداد أشعاراً كثيرة ... فأصبح في مذهبه إماماً يشار إليه، ويعقد الخنصر في وقته عليه، ودرس بمدرسة ابن الشمحل، ودرس

---

١ - ذيل طبقات الحنابلة (٣٧٣/١).

٢ - شذرات الذهب (٣٣١/٤).

٣ - البداية والنهاية (٢٨/١٣).

٤ - المصدر السابق (٢٨/١٣).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بالمدرسة المنسوبة إلى الجهة بنفشا المستضيئة، ودرس بمدرسة الشيخ عبد القادر، وبنى لنفسه مدرسة بدرب دينار ووقف عليها كتبه، برع في العلوم، وتفرد بالمنثور والمنظوم، وفاق على أدباء مصره، وعلا على فضلاء دهره، له التصانيف العديدة، سئل عن عددها فقال: زيادة على ثلاثمائة وأربعين مصنفاً، منها ما هو عشرون مجلداً، ومنها ما هو كراس واحد، ولم يترك فناً من الفنون إلا وله فيه مصنف، كان أوحد زمانه، وما أظن الزمان يسمح بمثله"[1].

من مصنفاته في علوم القرآن:

١- الأريب في تفسير الغريب.

٢- أسباب النزول.

٣- الإشارة إلى القراءة المختارة.

٤- تذكرة المنتبه في عيون المشتبه.

٥- تفسير الفاتحة.

٦- التلخيص[2].

٧- تيسير البيان في تفسير القرآن.

٨- الرسوخ في علم الناسخ والمنسوخ.

٩- زاد المسير في علم التفسير.

١٠- غريب الغريب.

١١- فنون الأفنان في علوم القرآن.

١٢- كتاب السبعة في قراءات السبع.

١٣- كتاب في عجائب علوم القرآن.

١٤- المجتبى في علوم القرآن.

١٥- المجتبى من المجتبى.

١٦- مختصر فنون الأفنان في علوم القرآن.

١٧- مختصر قرة العيون النواظر في الوجوه والنظائر.

---

١ - تاريخ الإسلام (٢٩٦/٤٢).

٢ - ذكر في مرآة الزمان مرتين.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

١٨- المغني في تفسير القرآن.

١٩- المنعش.

٢٠- المنقبة في عيون المنبه.

٢١- المصفى بأكف أهل الرسوخ من علم الناسخ والمنسوخ.

٢٢- نواسخ القرآن أو الناسخ والمنسوخ بالقرآن.

٢٣- نزهة العيون النواظر في الوجوه والنظائر.

٢٤- ورد الأغصان في فنون الأفنان.

٢٥- الوجوه النواضر في الوجوه والنظائر.

من مصنفاته في أصول الدين:

١- بيان غفلة القائل بقدم أفعال العباد.

٢- دفع شبه التشبيه.

٣- الرد على المتعصب العنيد.

٤- السر المصون.

٥- غوامض الإلهيات.

٦- مسلك العقل.

٧- منتقد المعتقد.

٨- منهاج الوصول إلى علم الأصول.

من مصنفاته في علم الحديث:

١- إخبار أهل الرسوخ في الفقه والحديث بمقدار المنسوخ من الحديث.

٢- إرشاد المريدين في حكايات السلف الصالحين.

٣- إعلام العالم بعد رسوخه بحقائق ناسخ الحديث ومنسوخه.

٤- أخاير الذخائر.

٥- الألقاب.

٦- تحفة الطلاب.

٧- تنوير مدلهم الشرف.

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٨- التحقيق في أحاديث التعليق.

٩- جامع المسانيد بألخص الأسانيد.

١٠- الحدائق.

١١- روضة الناقل.

١٢- الضعفاء والمتروكين.

١٣- العلل المتناهية في الأحاديث الواهية.

١٤- عيون الحكايات.

١٥- غرر الأثر.

١٦- المشيخة.

١٧- صفة الصفوة.

١٨- الموضوعات.

من مصنفاته في علوم الوعظ والزهديات:

١- تنبيه النائم الغمر إلى مواسم العمر.

٢- منهاج القاصدين.

٣- المدهش.

٤- صيد الخاطر.

٥- اليواقيت في الخطب.

٦- المنتخب في النوب.

٧- كنز المذكر.

٨- اللطائف.

٩- موافق المرافق.

١٠- نزهة الأديب.

١١- تحفة الوعاظ.

١٢- العقد المقيم.

١٣- نكت المجالس البدرية.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

١٤- منتهى المنتهى.

١٥- التعازي الملوكية.

١٦- ذم الهوى.

١٧- تلبيس إبليس.

١٨- الأذكياء[١].

١٩- حِكَايَاتُ الظِّرَافِ وَالمتَمَاجِنِيْنَ[٢].

٢٠- أَحْكَامُ النِّسَاءِ[٣].

ويورد ابن رجب في الذيل عن ابن القطيعي تلميذ ابن الجوزي في تاريخه قوله:" ناولني ابن الجوزي كتابا بخطه ... فذكر له (١٩٩) كتاباً"[٤].

وقال أيضاً في ذيل طبقات الحنابلة بعد أن سرد العديد من مصنفاته:" فهذا ما نقله ابن القطيعي، وقرأه عليه، وزاد فيه، ومع هذا فلأبي الفرج تصانيف كثيرة غير ما ذكر في هذا الفهرست، كأنه صنفها بعد ذلك، فمنها:

١- بيان الخطأ والصواب عن أحاديث الشهاب.

٢- الباز الأشهب المنقض على من خالف المذهب.

٣- الوفا بفضائل المصطفى صلى الله عليه وسلم.

٤- النور في فضائل الأيام والشهور.

٥- تقريب الطريق الأبعد في فضائل مقبرة أحمد.

٦- مناقب الإمام الشافعي.

٧- العزلة.

---

١ - مطبوع.

٢ - مطبوع.

٣- طُبِعَ مَنْسُوْبَاً إِلَى الإِمَامِ ابْنِ القَيِّمِ، المتَوَفَّى سَنَةَ(٧٥١هـ)-رَحِمَهُ اللهُ-،وَالأَرْجَحُ أَنَّهُ لِلْإِمَامِ ابْنِ الجَوْزِيِّ، المتَوَفَّى سَنَةَ (٥٩٧هـ)-رَحِمَهُ اللهُ-.وقد قال العلامة الزركلي- رحمه الله- في ترجمة الإمام (ابن القيم-رحمه الله-) مُعدِّداً كتبه في"الأعلام"(٦/٥٦):"... و(أخبار النساء-ط)، وفي نسبته إليه شكٌّ ...".

[راجع تفاصيل ذلك في: كتب حذر منها العلماء (٢/٣١٩-٣٢٤)].

٤ - ذيل طبقات الحنابلة (١/٣٧٤).

إهداء من شبكة الألوكة www.alukah.net

٨- الرياضة.

٩- فنون الألباب.

١٠- منهاج الإصابة في محبة الصحابة.

١١- الظرفاء والمتماجنين.

... وسمعت أن له حواشي على صحاح الجوهري، وما أخذ عليها، واختصر فنون ابن عقيل[١] في بضعة عشر مجلدًا." [٢] إلى آخر ما ذكر مكملاً بذلك ما يربو على مائتي تصنيف.

١ - كتاب (الفنون): لابن عقيل من أضخم الكتب؛ قيل إنه في (٥٠٠) مجلد!

٢ - المصدر السابق (٣٧٨/١).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

المطلب السابع: وفاته

بعد أن عاش الإمام جمال الدين أبو الفرج ابن الجوزي رحمه الله داعياً مرشداً كاتباً بارعاً زاهداً مخلصاً،قرابة تسعين عاماً، انتقل إلى جوار ربه ببغداد.

قال سبطه:" جلس جدي تحت تربة أم الخليفة عند معروف الكرخي، وكنت حاضراً، فأنشد أبياتا، قطع عليها المجلس، وهي:

الله أسأل أن يطول مدتي	لأنال بالإنعام ما في نيتي
لي همة في العلم ما إن مثلها	وهي التي جنت النحول هي التي
خلقت من العلق العظيم إلى المنى	دعيت إلى نيل الكمال فلبتِ
كم كان لي من مجلس لو	شبهت حالاته لتشبهت بالجنةِ
أشتاقه لما مضت أيامه	عُطلا وتعذر ناقة إن حنَّتِ
يا هل لليلات بجمع عودة	أم هل على وادي منى من نظرةِ
قد كان أحلى من تصاريف الصبا	ومن الحمام مغنيا في الأيكةِ
فيه البديهات التي ما نالها	خلق بغير مخمر ومبيت

في أبيات. ونزل. فمرض خمسة أيام، وتوفي ليلة الجمعة بين العشاءين الثالث عشر من رمضان[1] سنة سبع وتسعين وخمس مائة في داره بقطفتا، وحكت لي أمي أنها سمعته يقول قبل موته: أيش أعمل بطواويس؟ يرددها، قد جبتم لي هذه الطواويس.

وحضر غسله شيخنا ابن سكينة[2] وقت السحر، وغلقت الأسواق، وجاء الخلق، وصلى عليه ابنه أبو القاسم علي اتفاقاً[3]؛ لأن الأعيان لم يقدروا من الوصول إليه، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور، فصلوا عليه، وضاق بالناس، وكان يوما مشهوداً، فلم يصل إلى حفرته

---

(١) ١٢ رمضان ٥٩٧هـ - ١٦ يونيو ١٢٠٠م.

(١) أبو أحمد عبد الوهاب بن علي ابن سكينة هو الحافظ ضياء الدين عبد الوهاب ابن الأمين علي بن علي البغدادي الصوفي مسند العراق وسكينة جدته.

[العبر في خبر من غبر (٢٣/٥)].

٣ - أي: مُصَادَفَةً.

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

بمقبرة أحمد إلا وقت صلاة الجمعة، وكان في تموز، وأفطر خلق، ورموا نفوسهم في الماء. إلى أن قال: وما وصل إلى حفرته من الكفن إلا قليل. كذا قال، والعهدة عليه وأنزل في الحفرة، والمؤذن يقول الله أكبر[1]، وحزن عليه الخلق، وباتوا عند قبره طول شهر رمضان يختمون الختمات، بالشمع والقناديل، ورآه في تلك الليلة المحدث أحمد بن سلمان السكَّر في النوم وهو على منبر من ياقوت، وهو جالس في مقعد صدق والملائكة بين يديه.

وأصبحنا يوم السبت عملنا العزاء، وتكلمت فيه، وحضر خلق عظيم، وعملت فيه المراثي، ومن العجائب أنا كنا بعد انقضاء العزاء يوم السبت عند قبره، وإذا بخالي محيي الدين قد صعد من الشط، وخلفه تابوت، فقلنا: نرى من مات، وإذا بها خاتون أم محيي الدين، وعهدي بها ليلة وفاة جدي في عافية، فعد الناس هذا من كراماته؛ لأنه كان مغرىً بها".

وأوصى أن يكتب على قبره:

يَا كثيرَ العَفْوِ عَمَّنْ كَثُرَ الذَّنْبُ لَدَيْهِ
جَاءَكَ المذنبُ يَرْجُو الصَّفْحُ عَنْ جُرْمِ يَدَيْهِ
أَنَا ضَيْفٌ وَجَزَاءُ الضَّيْفِ إِحْسَانٌ إِلَيْهِ[2]

قال ابن خلكان:" ويقال: إنه جمعت بُراية أقلامه التي كتب بها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحُصِّل منها شيء كثير، وأوصى أن يسخن بها الماء الذي يُغسل به بعد موته، ففعل ذلك، فكفت، وفضل منها"[3].

أولاده:

يقول ابن الجوزي في كتابة لفتة الكبد:" فإنني لما عرفت شرف النكاح وطلب الأولاد ختمت ختمة وسألت الله تعالى أن يرزقني عشرة أولاد، فرزقنيهم، فكانوا خمسة ذكور وخمس إناث، فمات من الإناث اثنتان، ومن الذكور أربعة فلم يبق من الذكور سوى ولدي أبي القاسم فسألت الله تعالى أن يجعل فيه الخلف الصالح، وأن يبلغ به المنى الناجح".

---

١ – أي أذان الجمعة.

٢ – سير أعلام النبلاء (٣٧٨/٢١).

٣ – وفيات الأعيان (١٤١/١٣).

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

أما أبو القاسم علي، فقد كان عاقاً لوالده مؤلباً عليه في زمن المحنة وغيرها، وقد تسلط على كتبه في غيبته بواسط فباعها بأبخس الثمن.

ثم محيي الدين يوسف، وكان أنجب أولاده وأصغرهم، ولد سنة ثمانين وخمسمائة ووعظ بعد أبيه، واشتغل وحرر وأتقن وساد أقرانه، ثم باشر حسبة بغداد، ثم صار رسول الخلفاء إلى الملوك بأطراف البلاد، ولا سيما بني أيوب بالشام.

وكان لأبي الفرج عدة بنات منهن رابعة أم سبطه أبي المظفر بن قزغلي مؤلف (مرآة الزمان)، وهو من أجمع التواريخ وأكثرها فائدة، وقد ذكره ابن خلكان في الوفيات فأثنى عليه وشكر.

رحم الله الإمام ابن الجوزي، وبلغه منازل الصديقين والأبرار، وأحسن جزاءه على ما قدمت يداه للإسلام والمسلمين؛ إنه ولي ذلك والقادر عليه.

انتهى .. ولله الحمد والمنة

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

www.alukah.net إهداء من شبكة الألوكة

الفهرس

مُقَدِّمَة ٣
الفصل الأول ٤
عصر العلامة ابن الجوزي..... ٤
المطلب الأول: الحالة الاجتماعية ٤
المطلب الثاني: الحالة السياسية..... ٢٠
المطلب الثالث: الحالة العلمية ٣٧
المبحث الثاني..... ٤٣
ترجمة العلامة ابن الجوزي..... ٤٣
المطلب الأول: اسمه ونسبه ٤٤
المطلب الثاني: مولده ونشأته ٤٥
المطلب الثالث: شيوخه وتلاميذه ٥٠
المطلب الرابع: عقيدته ومذهبه الفقهي..... ٥٤
المطلب الخامس: ثناء العلماء عليه ٦٥
المطلب السادس: آثاره..... ٧١
المطلب السابع: وفاته..... ٧٨